مراجعات

ملحــق شهــري تصـدره وزارة الأوقــاف والشــؤون الدينيــة (العدد رقم: 85)

رمضان 1443هـ - ابريل 2022م

الصفحــة الأولــى...

هـلال الحجـري

من القصائد الإنجليزية المُتصلة بالعرب وبلادهم، قصيدة طويلة بعنوان «أطلالُ أراضٍ عديدة» للشاعر البريطاني نيكولاس ميشيل Nicholas Michell (١٨٠٧-١٨٨٠). وهو كاتب متعدد الموضوعات والاهتمامات، نشر قصائدَ في بعض الحوليات الأدبية، في سن مبكرة، ولقي تشجيعا من توماس كامبل وغيره من الأدباء، لكنه لم ينجح في جذب القُرّاءِ والنُّقّاد إلا بعد نشر ملحمته «أطلالُ أراضٍ عديدة» في عام ١٨٤٩. يقدم هذا العمل أوصافًا شعْريةً لكثير من الشعوب والممالك القديمة مثل مصر، وفلسطين، والعراق، وسوريا، ولبنان، وأثينا، وغيرها.

يرد في الكتاب الأول من هذا العمل وصفٌ طويل لبابل، ويتضمن وصفاً لبغداد وتمجيدا لهارون الرشيد وزوجه زبيدة. في الهامش، كتب نيكولاس ميشيل: « هارون الرشيد، ألفريد الشرق، الذي أصبح خالدًا في «أُنْس الليالي العربية»، كان مُعاصراً لشارلمان. كان هذا الخليفة الشهير والعاهل الفرنسي النبيل تربطهما علاقات صداقة ودية جدًا؛ فقد أهداه ساعة عجيبة تُعبّر عن تمكّن المُسلمين في تلك الفترة المبكرة».

(بغداد)

ونَمْضي، والشُّروقُ الآنَ بانا × تَحوّلَ منه دِجْلَةُ كَهْرَمَانا

وها بغدادُ أسوارًا ودُورًا × مآذِنَ طاولتْ فيها العَنَانا

فما أحلاكِ يا بَغْدادُ اسمًا × خيالٌ في طفولتِنا سَبَانا

بِلادُ السِّحْر، فيها الجِنُّ هامَتْ × وهارونُ الرشيدُ صَبا افتتانا

أميرُ العِشْقِ مَفْخَرَةُ «الليالي» × تألّقَ مَجْدُه فيها زَمانا!

مآثِرُه رواها العُرْبُ دومًا × إذا عَدمت ملوكُ الغَالِ شانا

هناكَ الزَّرْنَبُ الباكي ونَبْعٌ × تَدفّقَ ماؤه يَرثي المكانا

هناكَ الصُّبْحُ يَسْكبُ مِنْ سَنَاه × -كما ابتسم المَلائكُ- مِهْرَجانا

على قَبرٍ لسَيِّدةِ الغَوَاني × زُبَيْدَةَ، رُوحُها تأوي الجِنَانا

hilalalhajri@hotmail.com

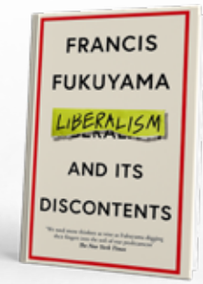

الليبرالية والتسخطات منها
فرانسيس فوكوياما

التدفقات التجارية
ماثيو كيت

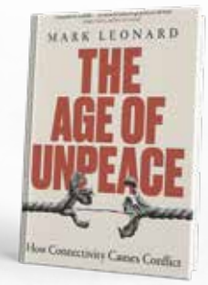

عصر اللا سِلم
مارك ليوناردو

المستشرق ليونه كايتاني في الصحراء العربية
فالنتينا ساغاريا روسّي

التقنيات التي تغير العالم
مجموعة مؤلفين

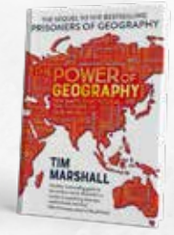

قوة الجغرافيا
تيم مارشال

الصيف الذي أصبحت فيه أسود
أنجليك بلندر بالاشتراك مع مارتين ر. دين.

وَهْم المال
سكوت سومنر

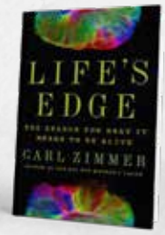

الحياة على الحافّة
كارل زيمر

البعوض..
ماركوس هول ودان تامور

وضع الشرق الأوسط واستراتيجيته
جيبين هان، وواي لي

إصــدارات عــالميــة جـديـدة

الصفحــة الأخيــرة

الليبرالية والتسخطات منها

فرانسيس فوكوياما

محمد الشيخ *

بعد إعلانه إعلانا واثقا عن نهاية التاريخ بانتصار الدولة الليبرالية المرتبطة باقتصاد السوق على منافساتها من الأنظمة الإيديولوجية التي وضعتها البشرية (١٩٩٢)؛ وبعد إبدائه في كتابيه اللاحقين. «أصل النظام السياسي» (٢٠١١) و«النظام السياسي والانحطاط السياسي» (٢٠١٤). محاولته إعادة كتابة «نهاية التاريخ وخاتمة البشر» بإدخال تعديلين على نبوءته: ١- صعوبة تطوير دولة حديثة لا يطغى عليها الطابع الشخصي. الأوتوقراطي. ٢- إمكان تراجع أية ديمقراطية ليبرالية حديثة؛ وبعد استدراكه في كتابه. «الهوية: مطلب الكرامة وسياسة الضغن» (٢٠١٨).

بالتذكير بأهمية الاعتراف بالهوية؛ ها هو فرانسيس فوكوياما يعود إلى تفصيل القول في حال الليبرالية اليوم وفي البديل الذي يراه عنها؛ والذي ما كان شيئا آخر. ولا مفاجأة ثمة! . سوى الليبرالية عينها. إذ هي الداء وهي الدواء الذي لا محيد عنه. لا «الليبرالية الجديدة» وإنما «الليبرالية الكلاسيكية».

يعلن فوكوياما عن سياق وضع هذا الكتاب: «أكتب هذا الكتاب في حقبة باتت تواجه فيها الليبرالية العديد من الانتقادات والتحديات، وصارت تبدو للعديد من الناس وكأنها أدلوجة عتيقة ومستهلكة تخفق في الجواب عن تحديات هذه الأوقات». ويلاحظ أنه ما كانت هذه أول مرة تنتقد فيها الليبرالية؛ إذ ما أن صارت هي أدلوجة معيشة فجر الثورة الفرنسية حتى هاجمتها الانتقادات الرومانسية التي رأت فيها أنها مبنية على رؤية للعالم حسابية عقيمة. ثم هاجمها القوميون، إبان الحرب العالمية الأولى، ممهدين السبيل للشيوعيين الذين عارضوها. على أنها صمدت رغم التحديات، بل تحولت إلى مبدأ تنظيمي مهيمن نهاية القرن العشرين. وبقاؤها ينهض، في رأي المؤلف، على أن لها تسويغات عملية وخلقية واقتصادية تجتذب الكثير من الناس؛ لا سيما بعد أن جرّبوا بدائل تبدت غير مقنعة. ولهذا الداعي، بات من الضروري. وهذه هي دعوى الكتاب الأساسية. إحياء مسوغات الليبرالية، ولكن أيضا تحليل الدواعي التي تجعل الكثير من الأفراد يرون أنها باتت غير متوفرة اليوم. وهو يقر أنه أفنى قسطا كبيرا من عمره باحثا في السياسة العمومية ومعلما وكاتبا، وأنها جالت بخلده أفكار لا حصر لها حول المبادرات الخاصة التي يمكن اتخاذها لتحسين العيش في الديمقراطيات الليبرالية المعاصرة. وها هو يتقاسم مع القارئ بعض هذه الأفكار بالوقوف على المبادئ الأساسية التي يستند إليها الأنموذج الليبرالي، مؤكدا على أن هذه المبادئ تبقى أسمى من مبادئ البدائل غير الليبرالية.

الليبرالية: التسخط

يلاحظ فوكوياما أن الليبرالية باتت في تراجع اليوم أمام موجات التسخط من جانبين: ١- الشعبوية (أوربان بهنغاريا، كازينسكي ببولندا، بولسانو بالبرازيل، أردوغان بتركيا، ترامب بأمريكا) التي باتت تهاجم المؤسسات الليبرالية الأساسية: المحاكم والنظام القضائي، الجهاز البيروقراطي غير المتحزب، استقلال الإعلام ... بحيث صار كل المحافظين يرون في الليبرالية، بدفاعها عن استقلال الفرد، تهجما على معنى «الحياة الطيبة» التي تدعو إليها الأديان والتقاليد الثقافية. وأمسوا يرون فيها تهديدا لمعتقداتهم العميقة، تساعدها في ذلك الصحافة والجامعات والمحاكم. ٢- اليسارية التي تلوم على الليبرالية عنايتها بالفرد وإهمالها للجماعة، ودفاعها عن المساواة الكونية المجردة بين الأفراد، وعن حرية الخطاب، وعن العقلانية العلمية ... وأطروحة المؤلف بهذا الصدد أن هذا التسخط لا يتعلق حقيقة بضعف معتبر في المذهب الليبرالي، بقدر ما يتصل بالسبيل الذي سلكه تطور الليبرالية لدى الأجيال المتأخرة ضمن ما بات يعرف باسم النيوليبرالية، والذي تأدى إلى تزايد حاد في التفاوت الاقتصادي والاجتماعي وإلى أزمات مالية اجتاحت العالم وصدمت أفناء الناس. إذ تحولت الليبرالية إلى أساس أيديولوجي لاقتصاد السوق؛ ومن ثمة باتت، في اعتبار العديدين، متورطة في أنحاء التفاوت التي نجمت عن الرأسمالية. وبات هؤلاء المتسخطون يدعون إلى إيجاد بديل جذري لليبرالية، حتى لو كان عنيفا. والمفترق بين المتسخطين: التسخط الأول آت من اليمين، وهو تسخط مباشر وسياسي، والثاني آت من اليسار، وهو تسخط ثقافي وغير مباشر. والمشترك بينهما: كلاهما لا يناقش جوهر الليبرالية، وإنما تبدياتها.

الليبرالية: الجوهر

حقيقة الليبرالية أنها حل مؤسسي لمشكلة حكم التعددية، أو هي: «طريقة سلمية لتدبير التنوع في مجتمعات تعددية». وأهم مبادئها عند روادها الأوائل (هوبز، لوك، روسو، جيفرسون، كانط) التسامح والملكية الخاصة وحرية السوق. ومن شأن هذه المبادئ أن «تُسوِّغ» اختيار الليبرالية وتفضيلها على غيرها من الأنظمة السياسية: ١- التسامح. لكل أن يعتقد ما شاء، لكن في حياته الحميمية، لا يفرض وجهات نظره على مواطنيه. وفي هذا تسويغ عملي لليبرالية: لو أن مجتمعا تعدديا أعرض عن الليبرالية واتبع فكرة الهوية القومية المبنية على العرق أو الجماعة أو الدين، أو أي تصور جوهري للحياة الطيبة، لعاد هو إلى الصراع العنيف. ٢- كرامة الإنسان. لليبرالية تسويغ ثان خلقي هذه المرة؛ وهي أن الشأن في المجتمع الليبرالي أنه يحمي كرامة الإنسان ضامنا للمواطنين حقا متساويا في الاستقلال بأنفسهم: إذ لكل واحد أن يحيا وفق ما يرتسمه لنفسه من غاية.

٢- النمو. التسويغ الثالث لليبرالية له صلة بالنمو الاقتصادي وبالتحديث. إذ لكل إنسان المقدرة على أن يبيع ويبتاع ويستثمر بحرية في سوق حرة.

الليبرالية: الانحراف يمينا ويسارا

حدث أن تم الانحراف بالليبرالية نحو منحيين: يميني ويساري. فأما الانحراف يمينا فقد حققه «ليبراليو اليمين» الذين اختزلوا قيم الليبرالية كلها في «الحرية الاقتصادية». وأما الانحراف يسارا فقد قام به «ليبراليو اليسار» الذين اختزلوا قيم الليبرالية سائرها في «استقلال المرء بنفسه» و«تحقيق الفرد لذاته». وهكذا، فإن ثمة شيئين أفسدا الليبرالية: اقتصاديو السوق الحرة في اليمين، والنقاد الثقافيون في اليسار. الأوائل حولوا حرية السوق إلى ديانة يتعبدون بها، والثواني صيّروا فكرة الاستقلال إلى عبادة هوية. من جهة أولى، تم الانحراف من الليبرالية الكلاسيكية إلى الليبرالية الجديدة؛ وذلك بجهد من مدرسة في الفكر الاقتصادي ارتبطت بجامعة شيكاجو وبالمدرسة النمساوية وبعلماء اقتصاد (فريدمان، بيكر، ستيجلر، ميسز، هايك) أنكروا دور الدولة في الاقتصاد، وركزوا على فكرة أن الأسواق الحرة محفزات للنمو وموزعات فعالة للموارد. وهو ما تجسد في سياسات تاتشر وريجن. وقد أثمر ذلك عن النزعة الحُرَّانية (الليبرتارية) المناوئة للدولة. والحال أن الأصل ألا تعارض، عند فوكوياما، بين الليبرالية بمعناها الأقوم والحماية الاجتماعية، ولَئِنْ صح أن الأفراد مسؤولين عن حياتهم وسعادتهم، صح أيضا أن ثمة ظروفا قد تفوق تحملهم. ومن هنا يأتي دور الدولة، على نحو ما أثبتته الجائحة الأخيرة. ومما طم الوادي على القرى مبالغة النيوليبرالية في الإعلاء من شأن الفرد حد التأسيس للفرد الأناني. وكأن الإنسان ما كان إلا فردا ليس إلا، وكأنه ما كان كائنا اجتماعيا أيضا؛ شأنه أن يسعد باعتراف الغير به. ومن شأنه لا أن يرغب في أن يُعترف به الغير وحسب، وإنما أن يُعترف بمعتقداته الدينية وأدواره الاجتماعية وتقاليده الموروثة في إطار من قيم الاحترام والفخر والثبات على المبدأ والتضامن. ولو ما كان البشر سوى آلات تبحث عن تأويج منفعتها وحسب، لما دافعوا عن الأوطان، ولما انتخبوا. وما كانت النظرية الليبرالية بهذا الصدد خاطئة، وإنما هي غير تامة.

ولَئِنْ هدد الأوائل الديمقراطية الليبرالية بخلق التفاوت المبالغ فيه، وعدم الاستقرار المالي؛ والذي انتهى بها إلى صدام مالي،

ونمو بطيء، وتقشف شديد من دون تقديم بدائل لاجتياح العولمة؛ فإنَّ الثواني جنحوا بالليبرالية منذ الستينيات. ماركوز (التسامح قمعي)، باتمان (الليبرالية ذكورية)، ميلز (الليبرالية عنصرية) . نحو سياسة الهوية التي تقوض أسس الليبرالية نفسها. وبدل خدمة التعدد، وضعت سياسة الهوية استقلال الفرد تحت سطوة الجماعة. ذلك أنهم في البداية أطلقوا مفهوم الاستقلال إطلاقات باتت تهدد السدى الاجتماعي. ومثلما تم إحداث منعطف من الليبرالية الكلاسيكية إلى الليبرالية الجديدة، فكذلك تم إطلاق منعطف من ليبرالية لوك وجيفرسون إلى ليبرالية راولز. المنعطف الأول تم على أساس فوائد السوق، والمنعطف الثاني على أساس قيمة استقلال الفرد. وكلاهما غلو. إذ الذي عند راولز إطلاق مبالغ فيه لمبدأ استقلال الفرد وإعلاء من شأن «الخيار» إلى حد جعله فوق كل خيرات الإنسان الأخرى. وهكذا تم توسيع مفهوم استقلال الشخص من الاختيار ضمن إطار خلقي قائم . قيم جماعية . إلى اختيار الإطار نفسه بالتشكيك في قيم الجماعة تشكيكا مبالغا فيه. وحدث أن انقلب السحر على الساحر لما هي وُضعت الجماعة محل الفرد، فصارت كل جماعة فرحة بما لديها؛ أي بهويتها. وبالجملة، باتت كل أساسيات المجتمعات الليبرالية . التسامح مع الاختلاف، احترام حقوق الأفراد، حكم القانون . في خطر اليوم.

ومن العجيب، أن النقد اليساري لليبرالية أمسى يلتقي اليوم مع النقد اليميني لها؛ إذ صارت تُوظف أفكار فوكو ودريدا عن تمركز الإنسان الغربي على ذاته وعن سياسة تدبير الأحياء (كما لاحظنا في الجائحة) في مهاجمة الليبرالية والتشكيك في نزعتها الأولى إلى التحرر من الشعوذة والظلامية والتعويل على العقلانية والعلم؛ وذلك بالزعم أن: «لا شيء حق، كل شيء ممكن»، وأن لا علم ثمة إنما هي سياسة تدبر بليل، وصارت الجماعات تطالب بالاعتراف بها وتنتقد الليبرالية ومؤسساتها التي تعدها مؤسسات تهمش الهويات، مطالبة بمنح الجماعات كرامة واعترافا على حد المساواة كما كانت قد وعدت الليبرالية الفرد . لا الجماعة . بمنحه الكرامة والمساواة. أكثر من هذا، ما عادت تطلب هذه الانتقادات المساواة للجماعة بل راحت تنشد التفوق لها (الجماعات اليمينية)؛ ومن ثمة باتت تنتقد هي «الكونية» و«الشمولية» . أساس الليبرالية . وتقول بالخصوصية والأصالة ...

الليبرالية: البديل

ودعوى فوكوياما بهذا الصدد دعوتان: أولا، لا بديل عن الليبرالية؛ وثانيا، لا بديل عند الليبرالية اللهم إلا الليبرالية نفسها: الليبرالية الكلاسيكية بديلا عن الليبرالية الجديدة. إذ منذ مفتتح كتابه، يعلن أن البغية من كتابه إنما هي «الدفاع عن الليبرالية الكلاسيكية». وما هذه «الليبرالية الكلاسيكية» يا ترى؟ مثلما كان تحدث أصحاب جماعة «الاشتراكية أو البربرية» عن «اشتراكية ذات وجه إنساني»، يستعير فوكوياما من عالمة الاقتصاد الأمريكية ماكلوسكي . صاحبة كتاب: «لماذا تنجح الليبرالية: كيف تُنتج القيم الليبرالية الحقة عالما للجميع أكثر حرية ومساواة وازدهارا» (٢٠١٩) . تعبير «ليبرالية إنسانية». هذا ويتمثل البديل الليبرالي عن النيوليبرالية وعن

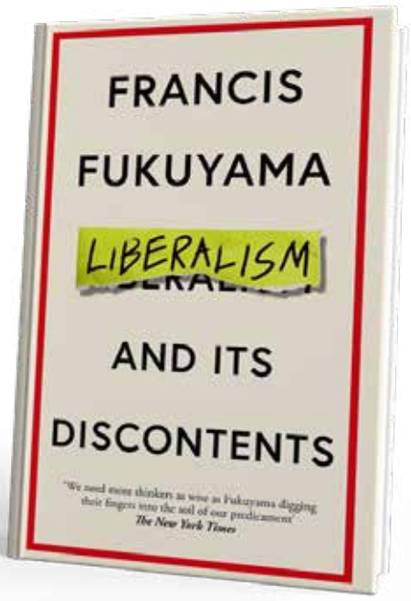

المتسخطين عليها، على حد السواء، في ستة مبادئ:

تملك الليبرالية عنصر قوة عجيب: المقدرة على تدبير التعددية. هذا بينما المتسخطون عليها يجدون صعوبة في قبول التعددية. إذ جوهر اليمين القومي الشعبوي أنه عرقي قومي يخشى التعددية في العرق والإثنية والجندر والدين والتوجه الجنسي. وهو ما يلجؤه إلى إعمال العنف، بدل الاحتكام إلى حقيقة التنوع الديمغرافي. على أن هؤلاء يذهلون عن مقصد أساس من مقاصد الليبرالية؛ وهو أنه يمكنهم أن يفيدوا منها في إقناع الأجناس المخالفة التي تعيش بين ظهرانيهم بجاذبية الفكرة المحافظة، وهنا يمكن أن يتبنوا المبادئ الكلاسيكية: يحتاجون إلى القبول بواقعة التنوع الديمغرافي واستغلالها للدفاع عن القيم المحافظة التي لا ترتبط بجوانب جامدة من الهوية. أما اليسار النقدي، فلا يدرك التنوع إلا بمعناه الاجتماعي (العرقي، الإثنيي، الجندري، الجنسي)، لا بمعناه السياسي، لا ولا يدرك تعدد رؤى العالم الدينية، ولا يدرك أن أهدافه قد لا يتقاسمها معه قطاع عريض من السكان.

الحاجة إلى الدولة: ما فتئ الليبراليون الكلاسيكيون يقرون بهذه الحاجة، وعليهم أن يتجاوزوا الحقبة النيوليبرالية التي تمت فيها شيطنة الدولة وحسبانها عدوا للنمو الاقتصادي ولحرية الفرد لا يمكن تفادي عدائه. وعلى العكس من ذلك، لكي تشتغل الديمقراطية الليبرالية الحديثة الاشتغال الأقوم، تحتاج إلى مستوى عال من الثقة في الحكومة، لا ثقة عمياء، وإنما ثقة ناشئة عن أن الحكومة تخدم أهدافا عمومية جوهرية، بعيدا عن كل نظرية مؤامرة استعدائية ضد الحكم والحكومة تعتبرها فاسدة وعاجزة وغير شرعية. كلا؛ لا سبيل إلى إنكار الحاجة إلى مقدرة الدولة؛ أي إلى حكم يملك من الموارد البشرية والمادية ما يكفي لتأمين الخدمات الضرورية. وتحتاج الدولة الحديثة إلى أن تكون غير شخصية؛ أي تسعى إلى أن ترتبط بالمواطنين وفق أساس المساواة والتجرد، وليس على أساس شخصي وزبوني وعائلي.

الحاجة إلى حماية حرية التعبير، مع فهم مناسب لحدود هذه الحرية: لَئِنْ حقَّ أن بعض الحكومات تهدد حرية التعبير، وهو محل قلق، فإن حرية التعبير يمكن أن تصير مهددة أيضا من لدن سلطات خاصة؛ شأن المجموعات الإعلامية ومنصات الإنترنت التي تضخم من قيمة أصوات على حساب أخرى. والجواب على هذا التحدي ما كان تدخل الدولة تدخلا مباشرا بآلتها التشريعية الثقيلة، وإنما تفادي الاحتكار وتشجيع المنافسة. ذلك أن المجتمعات الليبرالية تحتاج إلى حماية حوزة الخصوصية المحيطة بكل فرد. والحميمية شرط لتشجيع التشاور الديمقراطي والتوافق لَئِنْ رغب الأفراد في أن يبقوا نزهين اتجاه وجهات نظرهم، وما رغبوا في أن يتحولوا إلى قنافذ لا يوجد فيهم أملس.

استمرار أولوية الحقوق الفردية على الحقوق الثقافية للجماعات: ذلك أن الأفراد لا يتحددون بالتمام بالانتماء إلى جماعاتهم، وإنما شأن الأفراد أنهم فاعلون بصفتهم الفردية هذه. وإذا صح أن الجماعات الهوياتية تؤثر في تكوينهم، فإنه يصح أيضا أن لهم اختياراتهم الشخصية.

الإقرار بأن استقلال الإنسان بنفسه ما كان من غير حدود: ذلك أن المجتمعات الليبرالية تدعو إلى تساو في كرامة الإنسان، وهي كرامة تجد جذورها في مقدرة الأفراد على القيام باختيارات حرة. لكن، إذا كانت الاستقلالية قيمة ليبرالية جوهرية، فإنها ما كانت الخير البشري الذي شأنه أن يعلو على رؤى أخرى للحياة الطيبة علوا بالتلقاء. إذ ما كان كل كائن بشري يعتقد أن تأويج استقلاله الشخصي هو أعظم غاية لحياته، أو أن رفض كل سلطان عليه أمر حسن. فالكثير من الأشخاص يسعدون للحد من حرية خيارهم بقبول إطارات دينية وأخلاقية وثقافية تربطهم بالآخرين. وما كانت البشر بكائنات تشكل نفسها كما شاءت بما شاءت كيف شاءت أنى شاءت، وكأنها كائنات متخيلة افتراضية نخبة هواء لا طبيعة لها ولا ميراث ولا بيئة.

لا بد من الاعتدال: والاعتدال يعني تحكما في جموح النفس، وجهدا في كف الذات عن السعي إلى تحقيق أعظم الانفعال. وما كان من شأن هذا المبدأ أن ينطبق على حياة الفرد وحدها، وإنما شأنه أن ينطبق على السياسة أيضا. وهكذا، لَئِنْ كانت الحرية الاقتصادية في الشراء والبيع والاستثمار أمرا طيبا، فإن هذا ليس يعني أن إزالة كل الضوابط من النشاط الاقتصادي أمر أفضل. وإذا كان استقلال الفرد مصدرا لتحقيقه لذاته، فإن هذا لا يعني أن الحرية الجموحة تصيِّر الفرد أكثر اكتمالا. ومن ثمة، كان استرجاع معنى الاعتدال، فرديا وجماعيا، هو مفتاح إحياء الليبرالية نفسها.

عنوان الكتاب: الليبرالية والتسخطات عليها
اسم المؤلف: فرانسيس فوكوياما
دار النشر: بروفايل بوك
سنة النشر: 2022

* أكاديمي مغربي

التدفقات التجارية: كيف يحكم التفكير اللوجستي العالم

ماثيو كيت

سعيد بوكرامي *

شيد عالمنا المعاصر أساسا على الخدمات اللوجستية، ويشهد على ذلك العدد الكبير من الشركات والمتدخلين الذين يكرسون طاقتهم لنقل البضائع المستهلكة إلى جميع أنحاء العالم: لقد أصبح تداول البضائع محركًا أساسيًا للرأسمالية المعولمة. كيف هيمنت هذه العقلانية التجارية على الاقتصاد العالمي؟

نلاحظ في السنين الأخيرة انتشار المستودعات الشاسعة في أغنى البلدان التي حلّت محل المصانع المهجورة. في حين تضمن الدول الفقيرة (بسبب انخفاض قيمة المواد الخام واليد العاملة) تصنيع وتجهيز السلع التي تجوب الكوكب من أجل شرائها واستهلاكها. إذا كان العالم الصناعي والتجاري هو الذي أعطى للعقلانية اللوجستية أكثر أشكالها إنجازًا ونجاحًا، فإنّه يمتد الآن ليشمل أنشطة سكان الأرض جميعهم. من سياسات الهجرة إلى الممارسات الثقافية، ومن الحفاظ على البيئة إلى العلاقات الإنسانية، لا نكاد نجد مجالاً من مجالات الحياة لا يخضع لإدارة التدفق، باعتبار طموح الهيمنة المبدأ الأساسي للتسيير اللوجيستي.

حان الوقت لنسأل أنفسنا، كيف يحكم المجال اللوجستي حياتنا؟ يجيب هذا الكتاب المهم على كثير من الأسئلة المرتبطة بنظام التدفق التجاري الذي أضحى يتحكم تدريجيا في ميولاتنا ورغباتنا الاستهلاكية. يحاول الكتاب تفكيك آليات التدفق وابتكاراته وتصوراته التي تسعى إلى امتلاك حركة المرور والنقل والهيمنة عليها. هل هناك أجزاء من الحياة البشرية لم تخضع بعد للعقل التجاري أو للتفكير اللوجستي؟ من خلال المطالبة باعتماد نهج شمولي للخدمات اللوجستية، يقترح ماثيو كيت الإجابة على هذا السؤال. ويبدأ أولاً بتعريف اللوجستيات على نطاق واسع، على أنها «فن النقل والتنقل، والذي كان منذ الحروب القديمة ينحصر على نقل الطعام والأسلحة والحيوانات والرجال من منطقة إلى أخرى» (ص ١١).

يسلط هذا التعريف الضوء على الأصل العسكري للوجستيات الذي انتشر أخيرًا في المجتمعات المعاصرة كلها، والتي أصبحت هي نفسها «مجتمعات التدفق»، حيث تتجاوز اللوجيستيات الحدود والمناطق التي تكون عادة معزولة أو محاصرة «(ص ١٥). في الواقع، إن هدف ماثيو كيت يتمثل في إبراز أن الخدمات اللوجستية ليست فقط «وظيفة نقل مهمة» (ص ١٣) ولكنها «تُنظم الاجتماعي ؛ والمجتمع؛ وتبني الحدود الدولية وتلغي عدم المساواة؛ وتساهم في بناء بيئة عالمية، تنفذ رؤية جديدة للعالم «(ص ١٥). يعتمد هذا الكتاب على مرجعيات عديدة منها الأنثروبولوجيا الاجتماعية للعلم والتكنولوجيا وجزء من المنهج العسكري، ويتكون الكتاب من سبعة فصول، حيث نجد مساهمات تاريخية بديلة، والنتائج الحالية تمعن في وسائل «عرقلة» الحركة وحركة التدفقات.

يفتح الفصل الأول «الصندوق الأسود للشحن» ويقترح تحليل حركة الحاويات وتطورها. وفي هذا السياق يؤكد المؤلف على أن هناك «سباقا نحو الضخامة» لسفن الحاويات الكبيرة، حيث ساهمت الزيادة في حجمها في الزيادة الإجمالية في حجم التجارة الدولية التي ارتفعت «من مائة مليون طن في عام ١٩٨٠ إلى ما يقرب من مليارى طن في عام ٢٠١٧ (ص ٢٣). في الواقع، منذ عمليات التبادل الأولى في القرن الحادي عشر وحتى اليوم، حدث تغيير كبير في الحجم التجاري والذي قدم له ماثيو كيت وصفا وقياسا دقيقا. في الوقت نفسه، أدى هذا النمو إلى ظهور ما يسميه ديفيد جابوريو «مصانع الحاويات»، أي المستودعات التي تنتشر في البلدان اللوجيستية مثل موانئ بعض العواصم العالمية والتي تتراكم أكثر فأكثر، لتساهم هذه البضائع في إثراء شركات النقل العالمية (كما هو الحال فيدكس وأراميكس وأمازون) والتي تتداول بضائعها على النحو الأمثل بفضل «ترسانة من الأدوات والتقنيات» (الصفحة ٢٦) المتمثلة في المنصات، وشفرات التعرف، والعربات، والبرمجيات، إلخ. باختصار، فإنّ المؤلف يقوم إذن بتفكيك شبكة الرأسمالية المعولمة، أو بالأحرى غرفتها الخلفية، كما أنه لا يغفل أي جزئية من التفاصيل التي لا يعرفها القراء. كما يؤكد على أهمية خيار التركيز على «سلاسل التوزيع» بدلاً من الشركات فقط، وبالتالي يجلي أمامنا ظاهرة خدمات الشراء المعممة على نطاق دولي، وفقًا لمبادئ الإدارة الانسيابية. تؤدي «رأسمالية سلسلة التوزيع» (ص ٣٣) إلى اعتماد اقتصاد متبادل في منتهى القوة بين البلدان المختلفة، وبالتالي، ينعكس ذلك على إدارة رشيقة للتدفقات المتمثلة في عمليات تجميع المعلومات، والنقل، والجرد، والتخزين، والمعالجة المادية والتغليف.

ينبهنا ماثيو كيت، إلى أن اللوجيستيات لم ترتبط دائمًا بتنظيم التوزيع المادي للبضائع، وأنها كانت لعدة قرون «علمًا عسكريًا» (ص ٣٣). حدثت نقطة التحول المعرفية خلال الحرب الباردة، عندما دخل المصطلح عالم الإدارة من خلال ما يسميه المؤلف «البحث العملي»، وهو نشاط يتطلب تجنيد «عدد كبير من المهندسين والعلماء والاقتصاديين لترشيد وتحسين المجهود الحربي (ص ٣٥). ومع ذلك، فإن تطبيق هذه التقنيات لم يتوقف بعد الحرب، بحيث ظهر أن تلك الجهود يمكن تطبيق نتائجها في مجالات الحياة كلها، مما أفسح المجال لعلم اللوجستيك إذ سرعان ما تطور مع عالم الأعمال، مما خلق علما حقيقيا لحوكمة الشركات الذي يهدف إلى «تحديد أكثر الطرق فعالية لإدارة التدفقات» (ص ٤٥). ويهدف مبدأ التجارة الحرة في مجتمع معولم إلى تعزيز قوة الخدمات اللوجستية كوسيلة «لتحسين التداول» (ص ٦٥)، والتي امتدت من الممارسات الإدارية إلى تنظيم المجتمع.و تكمن أصالة الكتاب في الدراسة الدقيقة لتوسع علم اللوجيستيات أو إدارة التدفق، ليس فقط لتشمل عالم الأشياء/ البضائع أو الموضوعات أو الإنتاج ولكن لتشمل المجتمع بأسره.

يمكن أن تكون هذه الموضوعات أشخاصًا يعتبرهم التفكير اللوجستي موارد وتدفقات ومخزونات توجه نحو اتجاه محدد مثل (المهاجرون، والمرضى في المستشفيات، وإنشاء نقاط ساخنة، أجهزة مكافحة المشردين، ونقاط التفتيش، إلخ). نجد الكائنات الحية والطبيعة معنية أيضًا كما نجد (إدارة السكان، والحيوانات، والطعام، إلخ). وبطريقة لا مادية، يشير المؤلف إلى مسألة اختلاق الذاتية الجديدة «الأكثر ملاءمة لمنطق الربح للرأسمالية المعلوماتية (ص ٥٧). هذا هو الحال بشكل خاص مع فئة الرمز/ الكود،

والتي تميل إلى الاختزال لتبلغ أبسط وظائفها العملية، والتخلص من «قضايا التفسير والتمثيل» (ص ٥٨). يأخذ المؤلف هنا مثال البطاقة المصرفية التي تلعب دورًا لوجستيًا بشكل أساسي لأنها (رمز بدون محتوى دلالي)، وكما يسوق مثالا حيًا يتمثل في عدد مشاهدات محتوى يوتيوب(دون معرفة ما إذا كانت هذه «المشاهدات» مهتمة ومركزة). لكنها تخلق تدفقا ماديا وتجاريا.

على المستوى المادي، يوضح ماثيو كيت أيضًا الطريقة التي تستعاد بها تأثيراتنا، التي تجمع البيانات من الوسائل الرقمية وتحويلها «إلى بيانات سلوكية مناسبة وقابلة للتداول» (ص ٦١)، كمعلومات من قبل الشركات الرقمية لتسهل على المستخدم الوصول السريع إلى التدفقات، مثل الإعلانات على سبيل المثال (يعتمد المؤلف هنا على عمل شوشانا زوبوف «سواء أحببنا ذلك أم كرهنا، فقد بدأنا في التفكير مثل الآلات على أمل أن تخدمنا هذه في وقت لاحق» (ص ٦٢)). أخيرًا، على مستوى الاقتصاد الكلي، ينطبق تمديد الخدمات اللوجستية أيضًا على تدفق الأموال والعملة. ويذكرنا ماثيو كيت هنا بواقعة الغاء القيمة النقدية في الهند عام ٢٠١٦، والتي كان الهدف منها «الإشراف على تدفق الأموال» عبر عملية لوجستية مالية محضة.

وضعت هذه المجالات كلها «تحت نير مشروع السيطرة الذي يكون أفقه الأساسي تجاريا وأداته الترشيد التقني» (ص ٧١). وهكذا، تظهر اللوجيستيات كنشاط سياسي بارز، هدفه تجاري ومبدأه رأسمالي، بمعنى أن فائض القيمة يأتي من تعظيم وتكثيف التداول والسيطرة على العمليات من خلال «العمليات اللوجستية». يشير ماثيو كيت إلى وجود عيوب في هذه المنظمة المعقدة، على الرغم من المراقبة الدائمة للتدفقات. وتتعلق هذه «المناطق المعتمة» بالتدفقات غير القانونية التي تهرب من الدول أو المنظمات وتترك «الرأسمالية اللوجيستية عمياء بين القانوني وغير القانوني، والأخلاقي وغير الأخلاقي» (ص ٩٢)، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر: تهريب العملات، والعمليات غير المشروعة (الاتجار بالمخدرات أو المعادن النادرة)، ونقل النفايات، وإعادة التصنيف الاحتيالي للسلع (لحوم الخيول المعاد تصنيفها على أنها لحوم أبقار، إلخ).

يؤدي النمو الدائم للتدفقات إلى مظاهر متناقضة، تبرز من ناحية،في العنف الاجتماعي الذي يمارس ضد العمال (ضغط الأجور والاستثناءات من قانون العمل - لا سيما في المناطق الحرة - والتكاوين الوهمية، والضغط الإداري، إلخ) ومن ناحية أخرى، تتمثل في ظهور التوترات الجيوسياسية بسبب المنافسة بين الدول.

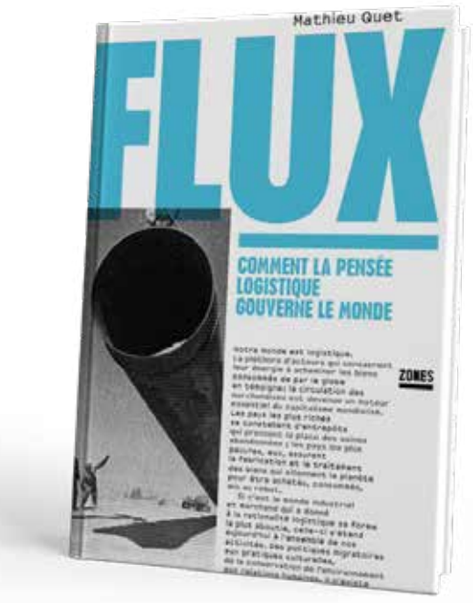

في الجزء الثالث يركز الكتاب على وسائل وقف أو إعادة توجيه هذا التكثيف المتزايد للتدفقات والعنف الاجتماعي الممارس في أعقابه. بتعبير أدق، يدعو ماثيو كيت على وجه التحديد عمال الخدمات اللوجستية للنضال ومقاومة العبودية الرأسمالية، فيحثهم على الضرب حيث يوجد الألم « مباشرة داخل البورصات» (ص ١٢٤). وهنا يعود الكاتب إلى أعمال بيفرلي سيلفر، مذكرا أن أكثر من ثلث المنازعات العمالية المسجلة بين عامي ١٨٧٠ و١٩٩٦ حدثت في عالم النقل. في الواقع، على الرغم من أن العاملين في هذا القطاع يشاركون بنشاط في إثراء الاقتصاد العالمي، إلا أنهم غالبًا ما يكونون آخر من يستفيد من الثروة المتاحة والمتعاظمة (حققت شركات اللوجيستيك في السنوات الأخيرة أرباحا خيالية). إن المستخدمين يحتلون بشكل عام مكانة استراتيجية في النضالات (التي تتجاوز النزاعات العمالية البسيطة)، لأن لديهم إمكانية تحويل أو تحريف أو إيقاف حركة التدفقات (وبالتالي «سد عنق الزجاجة» ص ١٢١) والتأثير بشكل مباشر على رأس المال من خلال «قطع الإمدادات » (ص ٩٨). لهذا يدعو ماثيو كيت جميع المواطنين إلى تفضيل «الدوائر القصيرة» للتجارة، لكسر التدفق، من أجل إنشاء خدمات بديلة، «تغيير الخدمات اللوجستية» والاعتماد على المنتجات المحلية (ص. ١٣٨).

وبناء على ما سبق يعتقد عالم الاجتماع ماثيو كيت أن «اللوجستيات تتدخل حيثما أمكنها ذلك». هل هي التنظيم البسيط لنقل البضائع في عصر العولمة؟ ينفي ماثيو أن تكون بهذه البساطة؛ لأن الخدمات اللوجستية تحمل معها نهجًا عالميًا للاقتصاد وطريقة جديدة في التفكير لا نزال بعيدين عن قياس تحدّياتها. ولفهم أوسع وأعمق يعود الكاتب إلى أصلها العسكري، ومن هنا طموح التفكير اللوجستي إلى غزو التجارة العالمية عبر تسيير وتدبير دقيق للإدارة الرشيقة، وصناعة الموظفين الجدد القادرين على تنفيذ خططه وابتكار خطط جديدة؛ لتوفير الموارد أو تدبير مدخلات إدارتها على النحو الأمثل. وإذا أصبح الأشخاص والبضائع قابلين للتبادل، فلأننا نفكر الآن بالطريقة التي تريدنا إدارة التدفق أن نفكر بها، سواء أكان الأمر يتعلق بالسكان المستقرين أو بمهاجرين أو بيانات أو معاملات مالية أو بالقطاعات الصحية. وهنا يحيلنا الكاتب على جائحة كوفيد، التي أفرزت مجموعة من المشاكل تتراوح بين انتشار الفيروس إلى توجيه المرضى، من خلال توزيع الأقنعة والمواد المعقمة واللقاحات. ولكن مع رغبتها في التحكم بسيولة كل شيء وبذلك التحكم في سلسلة التوريد («السلسلة اللوجستية»)، وخفض التكلفة وتقصير الدوائر، وبذلك تتمكن هذه العقلانية الاقتصادية الجديدة من معالجة البيانات واتخاذ القرار، والتحكم في المستهلك وفق التغييرات الاجتماعية والثقافية التي تكون وليدة الواقع وتحولاته سواء في حالة السلم والاستقرار أو في حالة الأوبئة والحروب.

في الفصول جميعها، يبلور ماثيو كيت أفكاره ويكشف بالتناوب عن ملاحظاته التي تمزج بين الكتابة الأكاديمية والكتابة الأدبية (مع استحضار شواهد عديدة منها على سبيل المثال لا الحصر: الرحلات الطويلة في البحار، وكراسات الملاحين والتجار ويومياتهم). قد يكون استخدام هذه السجلات المختلفة أمرًا مربكًا في بعض الأحيان، خاصة وأن هناك الكثير من المعلومات التي يوظفها الكاتب ومنها ما يرتبط ببيانات الخدمات اللوجستية العالمية. في اعتقادنا تصبح أطروحة المؤلف أكثر إقناعًا -بعيدا عن خطابه الوصفي -عندما تتعلق بتحليله للتفكير اللوجستي باعتباره التفكير العقلاني القائم على مبدأ الغزو التجاري بما يوفره من ترسانة رهيبة لأجل استمرارية سلسلة التوريد دون توقف كيفما كانت الظروف السياسية والإنسانية والبيئية، لتحقيق الميزة التنافسية وزيادة الأرباح.

الكتاب: التدفقات التجارية: كيف يحكم التفكير اللوجيستي العالم

المؤلف: ماثيو كيت

دار النشر: دار زون. باريس. فرنسا

سنة النشر: 2022

عدد الصفحات: 176 ص

اللغة الفرنسية.

* كاتب ومترجم مغربي

عصر اللا سِلم: كيف يتسبب الاتصال في الصراع

مارك ليوناردو

محمد السالمي *

منذ انتهاء الحرب الباردة، عمل قادة العالم على دمج الاقتصاد العالمي، وكسروا الحدود، وعززوا من سائل النقل والاتصالات على أمل جعل الحرب مستحيلة مجددا. وعلى الرغم من هذه الجهود، نشهد الآن تزايدا مستمرا لأنواع جديدة من الأسلحة على الساحة الدولية، وكذلك تصاعد مستويات التصعيد والحافز لمواصلة الصراع.

ورغم أن التكنولوجيا التي تبقينا على اتصال بالعالم قد غيرت أفكارنا حول العمل والرعاية والتواصل والاستهلاك، إلا أنها فشلت بطريقة ما في إبعادنا عن العنف المنتشر في واقعنا الاجتماعي والسياسي والاقتصادي وتصورنا للصراع. وقد شهد العقد الماضي عداوة جديدة بين الولايات المتحدة والصين، وعدم القدرة على التعاون في القضايا العالمية مثل تغير المناخ أو الاستجابة للوباء، وانهيار التمييز بين الحرب والسلام دون أن ننسى الصراع الإيراني الأمريكي، والروسي الاوكراني مؤخرا. في كتاب «عصر اللا سِلم « يقدم مارك ليوناردو تحليلًا فريدًا لبعض الموضوعات الرئيسية في الشؤون العالمية اليوم. ويشير أنه مع تقدم العولمة والاتصال، يبدو أن هناك اختلافات عدائية أدت إلى إبطاء التكامل العالمي، إضافة إلى قيام الدول والجهات الفاعلة غير الحكومية بتوظيف ملفات مثل الهجرة، والاقتصاد، والمناخ ، والصحة لتعزيز هذه الاختلافات.

مارك ليونارد هو مؤسس مشارك ومدير المجلس الأوروبي للعلاقات الخارجية، كما يملك بودكاست أسبوعيا يناقش فيه مواضيع حول الجغرافيا السياسية والاقتصادية العالمية وسياسات الاتحاد الأوروبي ومؤسساته. كما حصد كتاباه «لماذا ستدير أوروبا القرن الحادي والعشرين»، وكتاب «بماذا تفكر الصين؟» على أكثر الكتب مبيعًا على مستوى العالم، وقد ترجما لعدة لغات.

ساد اعتقاد تام لدى المؤلف في كتابه السابق «لماذا ستدير أوروبا القرن الحادي والعشرين؟»، أن الأسس التي يجسدها المشروع الأوروبي يجلب الكثير من الثراء للعالم ويقدم نموذجاً حياً لكيفية ازدهار البلدان. كان الاعتقاد بأن نظاماً عالمياً ليبرالياً واحداً من شأنه أن يجمع الدول المتحاربة في سلام ديمقراطي واسع الانتشار، وهذا ما تصوره القصة الأوسع للعولمة.

ولكن مع التطورات التي سادت في العقد الأخير أجبر المؤلف إلى إعادة التفكير في افتراضاته حول كيفية عمل العالم وإلى أين يتجه. حيث ينظر الكثيرون إلى أن هذا الترابط يجلب الضعف والتهديدات بدلاً من الأمن. فعلى سبيل المثال صوت أغلب البريطانيين لصالح خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، وفي الولايات المتحدة، تم انتخاب ترامب، وأقدمت أغلب الدول في جميع أنحاء العالم إلى سياسة بناء الجدران، وإغلاق الأبواب، وتمزيق المعاهدات الدولية.

استطاعت العولمة والثورة الرقمية معاً بطرق غير مسبوقة إلى تقليص العالم بطرق دراماتيكية، كما أصبحت سلاسل التوريد معقدة للغاية لدرجة أن الهاتف الذكي يحتوي على مكونات من مختلف دول العالم، وإن كمية البيانات التي نمتلكها حول ما يجري في المحيط، وحجم الأشخاص الذين يسافرون العالم، ومدى ارتباط الاقتصادات في نظام مالي عالمي واحد أمر فريد من نوعه في التاريخ.

منذ التوترات التي حدثت في القرن التاسع عشر وحتى الحرب الباردة، تطورت الاتصالات بشكل متسارع. وفي الحقبة التي تلت نهاية الحرب الباردة، أتى عصر جديد للاتصال يتمثل في توسع الإنترنت، والثورة الصناعية الجديدة، مما يخلق مستوى آخر من التفاعل. ومن هذا المنطلق، يسوغ لدى كثير من المحللين حول الصورة الشاملة للعولمة من تخيلات حول الكيفية التي ستجلب بها الإنترنت والعولمة الديمقراطية والحرية إلى تكوين عالم واحد، مما يجعل الحرب مستحيلة.

وعلى الرغم أننا لم نشهد حرباً عالمية ثالثة حتى الآن، لكن الناس يدركون الجوانب السلبية لهذا الانقسام.

يتوجه المؤلف الى استعمال مصطلح اللا سِلم بدلاً من النزاع المسلح أو حتى الحرب، وذلك عبر تحليل المفهوم التقليدي للحرب. فالحرب بمعناها هي صراع منظم يحدث بين دولتين، تبدأ بإعلان الحرب وتنتهي بمعاهدة سلام. وما يميز هذا التعريف أن هناك قواعد وقوانين للحرب تنص على التمييز بين المدنيين والمقاتلين. ولا ريب أن هذا النوع من الحروب لا يزال موجودا في عالم اليوم، لكنه نادر. وحتى لو أخذنا نظرة أوسع وقمنا بتضمين الحروب الأهلية وأنواع أخرى من النزاعات المسلحة، فمن الناحية التاريخية يموت عدد صغير جدًا من الناس بسببها اليوم. يزداد عدد الأشخاص الذين ينتحرون كل عام عن عدد الذين يموتون في النزاعات المسلحة بين البلدان. ويرى المؤلف من هذا المنطلق أننا نعيش في عصر السلام حسب وصفه. ولكن إذا نظرنا إلى الوجه الآخر لحجم العنف والتوتر، فإن الصراع بين جميع القوى العظمى يخرج عن نطاق السيطرة، ويظهر بشكل جلي بين الصين والولايات المتحدة، وبين روسيا والاتحاد الأوروبي، وكذلك بين المملكة العربية السعودية وإيران. كما أن هناك ملايين الهجمات كل عام بين لاعبين مختلفين، وغالبًا ما يتم تنظيمها من قبل الدول. ومن حيث الضحايا، ووفقًا للأمم المتحدة وغيرها من الأبحاث، قُتل مئات الآلاف أو فقدوا وظائفهم أو حُرموا من الحصول على الأدوية نتيجة الحروب التجارية. ولكن لم ينظر أحد حقاً في عدد الأشخاص الذين تضرروا من الأوضاع غير المواتية التي لحقت بالاقتصاد بسبب العقوبات. وبالتالي، فإن استعمال خيوط العولمة للصراع لا يتوافق مع التعريف التقليدي للحرب، لذلك هناك شعور واسع النطاق بأننا

نعيش في عصر من السلام، وأن تسليح هذه الروابط في الواقع يضر عدداً أكبر من الناس أكثر مما تسببه الحروب التقليدية.

ويشير الكاتب إلى أن الاتصال يمنح الدافع للناس لمحاربة بعضهم البعض، فعندما نقارن أنفسنا بالآخرين حول العالم، نقسم مجتمعاتنا إلى بؤر مستقطبة، ويسود وباء الحسد بينها، وعندما يشعر الناس أن ظروفهم لا تتوافق مع الحياة المثالية للمتميزين، أو يشعرون بأنهم مستبعدون في خطاب الهوية، يكون هناك شعور ساحق بفقدان السيطرة. ولكن بعيداً عن الدوافع، فإن الشيء المخيف هو أننا نمتلك ترسانة أسلحة مستحدثة يمكن أن نتنافس بها مع بعضنا البعض، حيث أصبحت الحرب بين القوى العظمى أكثر خطورة مع مرور السنوات لدرجة أنها يمكن أن تدمر المحيط الحيوي بأكمله. وبعيدا عن الخيار النووي، بدأت تتعزز الروابط عبر التسليح. وفي خضم صراع الاتصال والترابط، نؤذي بعضنا البعض من خلال تحويل كل خيوط العولمة إلى أسلحة، فنحن نستخدم التجارة والتمويل، وحركة الأشخاص عبر الحدود، والقانون الدولي ، وكذلك الإنترنت للتلاعب وإلحاق الضرر.

ففي القرن التاسع عشر، شعر الكثير من الناس أن العالم بأسره يتشكل من خلال سياسات تُتخذ من العواصم الكبرى، وهذا ما يشعر به الكثير من الناس تجاه النخب العالمية الآن، بحيث أن حكوماتهم أو الشركات الكبرى تتخذ قرارات لها تأثير هائل على حياتهم، ولا يملكون السيطرة عليها. فالرغبة في المزيد من التحكم في النتائج هي أحد الأشياء التي تدفع الناس إلى اللجوء إلى الرجال الأقوياء، و يتوهمون على الأقل أنهم قادرون على استعادة السيطرة ، حتى لو لم يتمكنوا من فعل ذلك عبر الممارسة.

كما تطرق الكتاب حول موضوع تنظيم استخدام الإنترنت ومسألة إخفاء الهوية على الويب بين الصين والولايات المتحدة. يستطيع الفرد في المجتمع الغربي الالتقاء مع أشخاص متشابهين بالأفكار وإن كانت ضارة أحياناً، سواء بشكل مجهول أو تحت أسماء مستعارة. أما في الأيام الأولى للإنترنت في الصين، لم تكن لديك هذه المتطلبات القانونية لاستخدام اسمك الخاص. ولكن مع انتشار التوترات السياسية

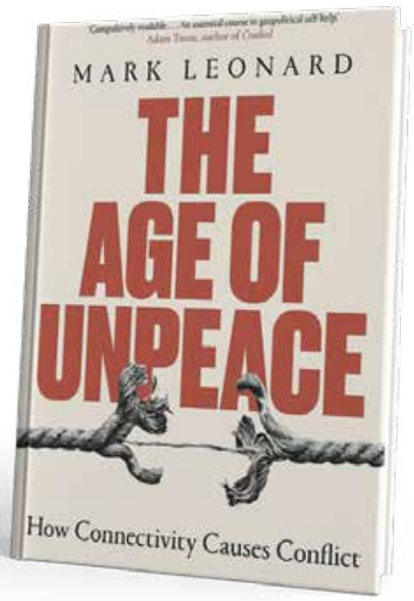

الدولية حول الإنترنت، قدمت الصين على عدداً من الاستراتيجيات لإنهاء إخفاء الهوية والحصول على مزيد من السيطرة، وإحدى الطرق التي قاموا بها هي جعل الشركات تراقب نفسها. تمتلك المنصات الكبيرة في الصين جيوشًا من مئات الآلاف من المراقبين، وهو بالمثل ما تقوم به فيس بوك حاليا. بهذا المعنى، هناك بعض المعايير العالمية الناشئة حول الخصوصية، حول ما يُسمح لك بوضعه على الإنترنت، وحول مسؤولية الأنظمة الأساسية. والشيء الوحيد الواضح، هو عودة المكبوتين في هذه المجتمعات للتصرف بطرق غير مقبولة بالضرورة في المجتمع، لأنهم يشعرون بالأمان في فقاعات الإنترنت هذه، وهذا أمر مخيف للحكومات الغربية والصين على حد سواء.

وعلى الرغم من صعود تهديدات الخصوصية من داخل الولايات المتحدة نفسها والمتمثلة بفيس بوك، لكنها تخشى فقدان السيطرة على الصين. يبين الكتاب أن الخوف الأكثر جوهرية في مشاركة دول أخرى عملية السياسية والسيطرة عليها، ولهذا السبب لا يُسمح للمواطنين الصينيين بامتلاك تيك توك أو الذهاب إلى فيس بوك أو استخدام تويتر، ولكن هناك أيضاً قلق متزايد بين المواطنين بشأن رأسمالية المراقبة، ومخاوف بشأن نماذج الربح التي تتعقب بياناتنا وتتلاعب بسلوكنا.

ويؤكد لينارد أنه يتعين علينا أن نصبح أكثر وعياً بما يحدث، وبالتالي يمكننا تطوير معايير لتنظيم وتخفيف الخطر. فخلال الحرب الباردة، كان أكبر خطر على البشرية هو خروج الأسلحة النووية عن نطاق السيطرة، فتم إنشاء سلسلة كاملة من القواعد والأنظمة للحد من التسلح للتخفيف من هذا الخطر. وعلى الرغم من أن صراعات الاتصال أكثر شيوعًا وأكثر فاعلية وفتكاً من الحروب التقليدية، فإننا لا ندرك حقًا أنها تحدث، وليس لدينا حتى مصطلح لوصفها. المشكلة هي النظرة للعولمة من منظور عالمي شمولي؛ فإذا نظرنا إلى العالم ككتلة واحدة، فإن الإجابة الواضحة أن الأمور تسير على ما يرام، فنحن أغنى بكثير مما كنا عليه من قبل، ولدينا تكنولوجيا أفضل بكثير. في المقابل، معظم الناس لا ينظرون إلى العالم بهذا الشكل، إنهم يفكرون في أنفسهم ويقارنون أنفسهم بالآخرين. لقد غيّر الاتصال العالمي بشكل أساسي من نقارن أنفسنا به، ولم يعد الأمر يتعلق فقط بالمحيط المحلي.

وفي المجمل، يلتقط الكتاب ببراعة الاضطرابات التي ولّدها الترابط العالمي، حيث تتمثل الأطروحة الأساسية في أن الاتصال يجب أن يقربنا جميعًا من بعضنا البعض، ولكنه أدى بذلك إلى ظهور العديد من النزاعات. ولسوء الحظ، غالباً ما تكون هذه الأطروحة غارقة في تيار هذه التحديات التي لا نهاية لها، والتي تتراوح من الشعبوية إلى الحرب غير المتكافئة، وعدم المساواة إلى المنافسة على السلطة الجيوسياسية. يقوم الكتاب بعمل رائع في جعل القراء على اطلاع دائم بالتحديات العالمية التي يشرحها بالتفصيل. تم تضمين الكتاب في قائمة الفايننشال تايمز لأفضل الكتب لعام ٢٠٢١م. ولسوء الحظ، غالباً ما يفشل المؤلف في الربط بين القضايا التي يثيرها في فرضيته المركزية، من حيث دعمها بالحجج المقنعة بعيداً عما يريده القارئ الغربي.

اسم الكتاب: عصر اللا سِلم: كيف يتسبب الاتصال في الصراع

المؤلف: Mark Leonard

الناشر: Bantam Press

سنة النشر: 2021

عدد الصفحات: 240

اللغة: الإنجليزية

* كاتب عُماني

المستشرق ليونه كايتاني في الصحراء العربية

فالنتينا ساغاريا روسّي

عزالدين عناية *

يدور محور هذا الكتاب الذي نتولى عرضه حول شخصية المؤرّخ والمستشرق الإيطالي ليونه كايتاني (1869-1935). وقد ذاع صيت الرجل في الأوساط الثقافية العربية الحديثة، بين عديد الكتّاب والباحثين، بفضل الصدى الواسع لأعماله الموسوعية في مجموعتيْ «دراسات التاريخ الشرقي» و«حوليات الإسلام»، وإن لم يُتَرجم إلا النزر القليل منها إلى العربية.

وضمن الاهتمام بإرث كايتاني واستعادة أطوار حياته صدر كتاب فالنتينا ساغاريا روسّي التي حاولت فيه قراءة يومياته ورسائله وصوره وتحليلها ونشرها. وهي وثائق ذات صلة بشبه جزيرة سيناء ومنطقة الصحراء الكبرى بالأساس. فالكتاب هو حديثٌ في منتهى التوثيق، وصناعته في منتهى الإتقان، عن رحلة وعن مستشرق أعيد له الاعتبار في العقود الأخيرة بعد إهمال. والكتاب هو مستخلَص من مدوَّنات الكتابات والشهادات الشبابية لشخصية فكرية إيطالية مولَعة بالشرق، كان قد لُقّب بأمير تيانو ودوق سيرمونيتا لتحدّره من عائلة أرستقراطية عريقة النسب (جدّه كان مستشرقا وأبوه تقلّد منصب وزير الخارجية في حكومة دي روديني وشغل هو بنفسه نائبا في البرلمان). إذ يُعدّ كايتاني من أوائل المؤرّخين الإيطاليين الذين انكبّوا على دراسة مصادر الإسلام وتاريخ الجزيرة العربية، وهو يُصنَّف ضمن «المؤرّخين الوضعيين»، بما عمله من تمهيد الطريق لغيره. وعبر فرز مئات الوثائق غير المنشورة لكايتاني، من قِبل فالنتينا ساغاريا روسّي، جاء نشرُ يومياته ورسائله وصوره بشأن الرحلة إلى مصر (١٨٨٨-١٨٨٩) والجزائر (١٨٩٠). وهي المرة الأولى التي يُعَدّ فيها عملٌ موسَّع حول المؤرّخ يتناول سيرته ضمن السياقين الثقافي والتاريخي، مدرَجة ضمن «مدوّنات رحلة» الشرق الأوسط في ذلك العصر. وتكتسي هذه الدراسة حول كايتاني أهمية لما تجليه من وقائع وأحوال وعوائد عن منطقتين مهمّتين في البلاد العربية، في فترة عزّت فيها الأخبار والوثائق عنهما. والرواية فضلا عمّا تجليه من أخبار ألّمت بحياة الرجل، فهي تبرز ما لكايتاني من تأثير واضح في مسارات الاستشراق الإيطالي.

فالنصوص التي نشرتها الباحثة فالنتينا روسّي واردة من «مؤسسة كايتاني» التابعة لـ «أكاديمية لنشيه»، أعرق المؤسسات العلمية الإيطالية وأعلاها صيتا في الوقت الحاضر. والباحثة تتولّى الإشراف على قسم كايتاني في هذه المؤسسة. وكما تخبر الوثائق، تندرج رحلة كايتاني إلى سيناء وجنوب الجزائر ضمن سلسة من الرحلات، شملت مصر وسوريا وفلسطين وبلاد الرافدين وسيلان والهند. وبشكل عام، ساد تقليد الرحلة في أوساط العائلات الأرستقراطية في إيطاليا كشكل من أشكال التكوين التربوي للطبقة الحاكمة والشرائح الفكرية المتنفّذة. فممّا يميز كايتاني عن غيره من المستشرقين الإيطاليين أنّه استقى معلوماته مباشرة وبنفسه عن المجتمعات الإسلامية التي كتبَ عنها، ولم يحل ذلك دون أن يشهد إهمالا بين مجايليه. ولاقت مدونات الرحلة نوعا من الاستهجان والغرابة والاحتقار من قبل الفيلولوجيين حينها، في حين غدت اليوم ذات قيمة، لما مثّله كايتاني من ريادة وأسبقية في اكتشاف منطقة مهمة من البلاد العربية بين الإيطاليين، وقد كانت المنطقة في ذلك العصر تقريبا حكرا على الفرنسيين والألمان دون غيرهم.

وكما أوردنا سابقا، الكتاب برمته يضمّ ٥٦١ صفحة، شمل القسم الأول (٢٢٨ صفحة) وهو تمهيد وتعليقات للباحثة فالنتينا روسّي، أي بمثابة الحاشية على يوميات الرجل ورسائله وشخصه، في حين حازت الوثائق، أي اليوميات التي دوّنها كايتاني، والرسائل، والبرقيات التي بعث بها لوالديه (٢٣٥ صفحة)، كما ضمّ الكتاب ١٠٠ صورة لكايتاني والأماكن التي زارها، أردفتها الباحثة بجملة من التعليقات والتحاليل. ونشير إلى أنّ اليوميات الواردة بشأن سيناء تمّ نشرها بعد وفاته، في حين تلك المتّصلة بجنوب الصحراء، فلم تنشر سوى مع فالنتينا روسّي. هذا وقد قدّمَ للكتاب المؤرخ وعالم الآثار الإيطالي ماريو ليفراني.

وما يميّز كتاب فالنتينا ساغاريا روسّي أنّه جامع شامل، ذلك أنّ المقدّمة التي مهّدت بها للبحث وللرحلة، سيناء والصحراء الكبرى، هي عبارة عن كتاب مستقلّ بحاله (٢٢٨ صفحة). ومن هذا الجانب يُعدّ الكتاب متميّزا وريادّيا. صحيح صدرت أجزاء سابقة من يوميات كايتاني في مجلات ومؤلّفات، وبأقلام معروفة كارلو ألفونسو نللينو في مجلة «أورينتي موديرنو» العدد ١٦، ١٩٣٦؛ فرانشيسكو غابريللي، «شخصيات ومشاهد من الجنوب»، ميلانو-نابولي ١٩٦٠- ولكنّها ما كانت بهذه الدقة والشمول والتحليل.

وكما نعرف صدرت تراجم عدّة سابقة عن ليونه كايتاني وعن آل كايتاني تناولت سِير أفراد العائلة، وربما الشيء الهام في هذه الترجمة وهو «نزع الأسطرة» عن كايتاني المستشرق والمؤرخ، ومحاولة تنزيله المنزلة الصائبة ضمن أطوار الاستشراق الإيطالي. تحدّثت الكاتبة عن مستوى إلمامه المتواضع بالعربية، وعن اعتماده في استقاء معلوماته على مستشرقين غربيين سابقين مع تطعيم ذلك بالزيارات المباشرة. فما كان تكوينه في اللغة العربية، في الفترة التي زار فيها سيناء والصحراء الكبرى، يسمح له بامتلاك ناصية التحاور والفهم والقراءة بالعربية. كما تعرّضت الكاتبة إلى دواعي عدم الاعتراف به في أوساط المستشرقين في عصره، كونه كاتبا من خارج الأنماط السائدة، ونظرا لكونه فتيًا حين بدأ يتطرّق إلى مواضيع تتطلّب دراية عميقة وخبرة واطلاعا. فقد كانت زيارته عل سبيل المثال إلى سيناء والجزائر، وهو في سنّ تتراوح بين التاسعة عشرة والعشرين. ويلوح ذلك بيّنا من المعلومات التي أوردها عن سيناء، كان الكثير منها مستوحى أو مستخلَصا ممّا يرد في العهد القديم، ووارد لدى كتاب غربيين، ومن جانب آخر حين خاض الرحلة إلى منطقة الصحراء الكبرى تقلّصت معلوماته إلى درجة كبيرة ليغدو الرصد أنثروبولوجيًا منحصرًا في حدود المشاهَدة والمعايَنة المباشرة لا غير. من جانب آخر أيضا، في الأربع مئة ورقة من المذكرات المدوَّنة بقلم كايتاني، التي اعتمدتها الباحثة فالنتينا روسّي، يَغيب الحديث عن الدين الإسلامي في معيش الناس، أو داخل الزوايا، سوى بعض الإشارات العابرة عن صدق البدو، بما يشبه الحديث عن «البريّ الطيب» مع المستشرق واكلان ساويرين رزيفوسكي. وهذا كلّه يبرز الجانب الخفي في شخصية كايتاني، لكن الاحتفاء بكايتاني في الثقافة العربية ما كان ناتجا عن تقييم علميّ لعمله وأثره، بل لانطباع طيّب خلّفه حديثه عن المسلمين، حيث صرّحَ في أكثر من موضع من مؤلّفاته انه أحسَّ دائما أنّه بين ذويه في أوساط المسلمين، ولم يستشعر ذلك الاقتحام عليه من دين الإسلام.

وتكمن أهمية يوميات كايتاني في كونها أرضية تطوّرَ على

أساسها مشروع التأريخ للإسلام معه، وهو بالفعل ما يخلص إليه المستشرق أليساندرو باوزاني، معتبرًا كايتاني «دارس الإسلاميات الأكثر إيغالا في الدراسات الإسلامية بين الإيطاليين».

حاولت الباحثة فالنتينا روسّي الإحاطة بموضوع بحثها من جميع جوانبه، حيث يهيمن المنهج التاريخي الفيلولوجي على الكتاب. وللتوضيح نشير إلى أنّ كايتاني قد قام بالعديد من الرحلات سواء نحو البلاد الإسلامية أو غيرها. وقد شاءت الكاتبة، وهي المكلّفة والمعنيّة بوثائق كايتاني وتراثه في أكاديمية لينشيه، أن تُخصّص كتابها لفضاءين دون سواهما، سيناء والصحراء الكبرى، ولعلّها تخطّط لأعمال أخرى حول الرجل في قادم الأيام. وما نودّ قوله انّ كتابها أتى محيطا وملمّا بموضوعه. بدا منهج الاشتغال على المخطوطات، بتأنّيه وتدقيقه وتثبّته، جليّ التأثير في صياغة مؤلف فالنتينا روسّي، حيث حرصت على التدقيق والشرح والتفصيل وآثرت إثراء نصّها بجملة من التفاصيل المفيدة. وقد صيغ النصّ صياغة لغوية واضحة يطبعها طابع أكاديمي، خلا فيها من التجريد والغموض، حيث وفّقت الكاتبة في جعل هذه الدراسة، على طولها ووفرة استطراداتها وتشعّب مواضيعها، يسيرة القراءة على غير المتخصّص أو غير المتابع للدراسات الاستشراقية. حيث تَبرُز الكاتبة على دراية معمّقة بالمصطلحات العربية ذات الصلة بمجال الدراسة، وعلى إلمام جيد بالأبحاث الاستشراقية في المجال. كما تبدو على إلمام بالمصطلح الديني والاجتماعي والتاريخي، وقد تسنى لها ذلك بفضل تخصّصها الفيلولوجي.

وبوصف مؤلف فالنتينا روسّي يتضمّن نصّا آخر بداخله اشتغلت عليه الباحثة، فإنّنا نجد من ناحية الفهارس أجندة تستعيد في ضوئها التواريخ ولحظات الانطلاق والوصول والزيارات لكافة المحطات التي مرّ بها ليونه كايتاني، في رحلته نحو سيناء والصحراء الكبرى. تلت تلك الأجندة خريطة أولى تعود إلى كايتاني وقد رسم مسارها بنفسه وأشار إلى محطاتها، وهي على صلة بالرحلة إلى سيناء، ثم خريطة ثانية تعود إلى الفترة التي زار فيها الصحراء الكبرى، وقد حاولت الباحثة فالنتينا روسّي بنفسها رسم مسار كايتاني فيها مهتدية بما ورد في المذكرات والرسائل. ثم في آخر الكتاب نجد فهرسا بأسماء الأعلام والأماكن الواردة في اليوميات.

نشير إلى أنّ مؤلفة الكتاب، فالنتينا ساغاريا روسّي، قد سبق لها أن أصدرت ثلاثة أعمال معتبرة: «كتاب الأمثال في الحديث النبويّ» لأبي الشيخ الأصبهاني، (منشورات جامعة «الأورينتالي» نابولي ٢٠٠٢)؛ «أرشيف ليونه كايتاني في أكاديمية لينشيه» بالاشتراك مع باولا غيونه (منشورات

ليرما روما ٢٠٠٤)؛ «المخطوطات المدوَّنة بالحرف العربي» بالاشتراك مع فرانسوا ديروش (منشورات فيلا روما ٢٠١٢). كما نشرت مجموعة من الدراسات والمقالات العلمية في دوريات أكاديمية. وخلال مشوارها الدراسي، سواء في رسالة التخرج بالإجازة أو أثناء الحصول على الدكتوراه اشتغلت فالنتينا روسّي على مخطوطتين عربيّتين. وتَواصلَ اهتمامها بالمخطوطات العربية في إيطاليا مع التحاقها بالتدريس واشتغالها في أكاديمية لينشيه، ما جعلها اليوم أبرز باحثة مهتمّة بالمخطوطات العربية والإسلامية في إيطاليا.

لم نلاحظ مواقف تنمّ عن مركزية غربية لديها أو أحكام أو تقولات في كتاباتها أو تصريحاتها متحيزة أو مخالفة لما هو علمي. وعلى العموم تبقى فالنتينا ساغاريا روسّي باحثة غربية تشتغل على الثقافة العربية، وتكتب عن الثقافة العربية، من زاوية نظر غربية وبأدوات غربية. فهي تفتقر إلى تلك المقدرة النقدية المتعالية والمتميّزة التي تؤهلها للخروج عن الأنماط السائدة بشأن المجتمعات العربية أو بشأن الثقافة العربية. لكن ذلك لا يخفي شغفها بمجال عملها وسعيها الدؤوب للنهوض بالقطاع المعرفي الذي تشتغل فيه والإضافة إليه.

بقي أن نشير إلى أنّ كتابا بهذا الحجم والثراء، كان من الأجدى تنويع الفهارس والتفصيلات الإضافية فيه، على غرار بيان المصادر والشخصيات المحورية التي استقى منها كايتاني معلوماته، وجرد الأماكن التي حلّ بها، وذكر أسماء الأشخاص الذين قابلهم، والتفصيل في اللغات واللهجات التي استعملها، وأي وسطاء أعانوه في التواصل مع الناس حتى تسنى له تدوين مذكراته.

كما أنّ الكاتبة لم تعوّل على الرسوم والجداول، وما الخريطتان والصور الواردة في الكتاب، سوى قسم من المادة التي اشتغلت عليها وهي تعود إلى المؤرخ كايتاني، في حين هي لم تعمل على إضافة عناصر أخرى كوسائل مكمّلة لشرح ما ورد في الكتاب. كنتُ قد أشرت إلى الخريطتين المدرجتين في آخر الكتاب وكذلك إلى الصور، لكن ما أريد توضيحه أن الصور الواردة في الكتاب هي صور على صلة بالرحلة، أردفتها الكاتبة بضبط لمقاساتها وشرح لفحواها وذكر لتواريخها.

لقد وفّقت الكاتبة في الإحاطة بموضوعها والتطرّق لتفاصيله من جوانب مختلفة، ومن هذا الباب قدّمت عملا جيدا على صلة بشخص المستشرق كايتاني، وعلى صلة بحقبة شبه معتمة، وبمنطقة جغرافية تبدو معزولة. الكتاب يقدّم خدمة جليلة للثقافة العربية، بما يوفّره من إضاءات على شخصية دارسة للحضارة العربية، من حيث منهجها ونظرتها وتعاطيها مع الوقائع. صحيح لا يقدّم الكتاب خدمة مباشرة للثقافة العربية وللدراسات العربية، ولكنه ييسّر ويثري متابَعة حقل دراسات الاستشراق بشكل عام.

وصحيح لا يتعلّق الكتاب بدراسة قضية مباشرة على صلة بالتاريخ الإسلامي أو بالحضارة العربية، وإنّما يتركز اهتمام صاحبته حول شخصية درست الحضارة العربية، سواء كان في جانبها الاستشراقي الغربي أو في جانب اتصالها بالواقع العربي، مع ذلك فإنّ الكتاب فيه خدمة جليلة وقيّمة للحضارة العربية. ورغم أنّ الكتاب حديث الصدور، فقد لقي صدى طيبا في الأوساط الثقافية الإيطالية، كما دعيت مؤلفته إلى عرضه في عدد من المؤسسات البحثية والأكاديمية المهتمة بالدراسات الشرقية. ثمة مجهود واضح في إنجاز الكتاب، فضلا عن دقة في التعامل مع الوثائق التي بنيت عليها الدراسة. أقدّرُ أن تلك الخاصيات سوف تبوّئ العمل مكانة مرموقة كمرجع أساسي لدى كلّ باحث مهتمّ بالكتابة عن ليونه كايتاني. ونشير كذلك إلى أن الكتاب لم يُترجم بعد إلى لغات غربية أخرى، وأقدّر أنه سيحظى بالترجمة، في حين من الجانب العربي فإنّ العمل لم يترجم لا كلّيا ولا جزئيًا، ولم يرد له أي ذكر له في الصحافة العربية المعنية بالمنشورات الغربية الحديثة.

الكتاب: المستشرق ليونه كايتاني في الصحراء العربية

تأليف: فالنتينا ساغاريا روسّي.

الناشر: أكاديمية لينشيه- منشورات باردي (روما -إيطاليا) «باللغة الإيطالية».

سنة النشر: 2021.

عدد الصفحات: 561 ص.

* أكاديمي تونسي مقيم بإيطاليا

التقنيات التي تغير العالم: تطبيقها وآثارها في العالم وفي الشرق...

مجموعة مؤلفين

فيكتوريا زاريتوفسكايا *

تتعلق هذه الدراسة بالتقنيات المبتكرة، وقد اختار مؤلفوها من التقنيات ما اعتقدوا أنها أكثر ما يغير عالمنا ويُؤثر على مستقبلنا. في الوقت نفسه، ركز الباحثون، ومعظمهم من الخبراء المستشرقين من الأكاديمية الروسية للعلوم، على تطبيق ودور هذه التقنيات في بلدان آسيا وإفريقيا.

يتكون الكتاب من مقدمة و١٢ فصلاً مجموعة في أربعة أبواب. يتضمن كل باب ما يسمى دراسات حالة (case story) مفصلة. ويركز مؤلفو الباب الأول على تحليل الآثار الاقتصادية للتكنولوجيات المُطبقة في راهن وقتنا (فصول: «تقنية Blockchain وتطبيقها في الاقتصاد»، و«الفرز الجماعي والاقتصاد المنظّم» ، و«الطاقة الخضراء في الصين: الاستعانة أم الصناعة المحلية؟»، «الأتمتة والروبوتات: آفاق التوظيف»). سعى مؤلفو الباب الثاني إلى استبيان كيفية عمل هذه التقنيات على تعزيز السلطة على الجماهير العريضة وذلك باستخدام مثاليَّ الهند والصين (فصول: «الحكومة الإلكترونية والمدينة الذكية في الهند: pro et contra»، «التقنيات الرقمية للتحكم بالطاقة: نظام الثقة الاجتماعية في الصين»). يعرض الباب الثالث تحليلاً للاستجابات السلوكية لفئات اجتماعية معينة (المهاجرون والشباب) ومجتمعات أوروبا وروسيا وآسيا وإفريقيا ككل للتحديات النفسية والسياسية والثقافية التي خلقتها التقنيات المذكورة (فصول: «معلومات التقنيات والديناميكيات الاجتماعية: حالتان مقنعتان»، «التقنيات الرقمية في البيئة الاجتماعية لإفريقيا: الفقر والهواتف المحمولة والشركات الناشئة»، «المنصات الرقمية للمهاجرين: كيف تساعد في التغلب على التهميش»). ويجمع الباب الرابع الدراسات التي تركز على الجوانب الإنسانية للتفاعل مع هذه التقنيات، مثل دورها في نشر الثقافة الشعبية الكورية حول العالم وخصائص العملية التعليمية في الفلبين أثناء الوباء، أو استخدامها لمُواجهة فيروس كورونا في منغوليا.

ينطلق المؤلفون، وهم يحددون أهداف أبحاثهم، من حقيقة أن العصر الحديث هو زمن التقنيات المتغيرة للعالم - النانو والحيوية والمعلوماتية والمعرفية والاجتماعية الإنسانية. تحفز هذه التقنيات التغيرات الاجتماعية، وبالتالي، هناك حاجة لفهم ما يحدث في راهن وقتنا من منظور تلك التحولات المستقبلية التي تجلبها التقنيات الحديثة.

وكما يؤكد المؤلفون فإنَّ هذه المهمة معقدة لأسباب عدّة أهمها أن الأهداف التي يتم لأجلها استخدام الابتكارات التكنولوجية تتوافق راهنا مع «المزاج العام لما بعد الحداثة بأخلاقها البسيطة، الخالية من أي إلزام» (١٩١)، إذن فهناك تعددية الحقيقة، وتجزئة للإدراك والقيم والسعي الدائم إلى تبسيطها أكثر وأكثر.

ووفقًا لمُلاحظات المؤلفين، يلعب التوقيت لتقييم هذه التقنيات دورًا مُهمًا: فكلما اقتربنا من المرحلة الأخيرة من الحداثة، كان التقييم أكثر تفاؤلاً، وكلما اقتربنا من نهاية ما بعد الحداثة، جاء أشدّ توترًا. بهذا المعنى، فإن التركيز على التوقيت المناسب للأحكام المتفائلة والمتشائمة حول الآثار الاجتماعية للتكنولوجيات التي تغير العالم يُعبّر عن نفسه بأن الأولى تنجذب نحو نهاية القرن العشرين، والثانية تشتد بمرور قرننا هذا.

وكما يرى المؤلفون، من الضروري إجراء النقاش حول تطوير التقنيات ضمن إطار الثورة العلمية والتكنولوجية وعواقبها الاجتماعية، لأنَّ التقنيات تغير العالم بشكل أسرع من تغير الثقافة البشرية، بحيث تتشكل ثقافة تطبيق التقنيات المبتكرة فيما بعد. وهكذا رسم فنانو المستقبلية صورًا للانتصار الرمزي للتكنولوجيا، لكن الواقع بعيد كل البعد عن التوافق مع أعمالهم. فمن ناحية، نجد أن التطورات العلمية تخلق عالماً جديداً، ومن ناحية أخرى، تدمر نماذج الحياة المعتادة والقيم التي تدعمها الثقافات التقليدية كما تُفقدها فعاليتها وتضعها في خانة الشك. وعليه، يستنتج المؤلفون أن البشرية تضطر إلى تغيير جميع أنواع العلاقات بالطريقة التي يقترحها الابتكار التكنولوجي.

علاوة على ذلك، ووفقًا لوجهة النظر الشائعة، يُعد الابتكار (والتكنولوجيا بشكل عام)عاملاً مهمًا ليس للتنمية وحسب، ولكن للتحول الحقيقي والإيجابي للإنسان والمجتمع في القرن الحادي والعشرين. بالمقابل، ووفقًا لرأي آخر يتم تداوله على نطاق واسع كذلك، يمكن أن يؤدي هذا بالعالم إلى التدهور والانهيار. «التقنيات نفسها لا تُحَسّن المجتمعات أو تدمرها. إن تأثيرها ثوري بمعنى أنها تؤثر بعمق على طريقة ونوعية حياة الناس وهويتهم وقيمهم وأهدافهم وأنواع وطرق تكوين علاقات العمل والأسرة وغيرها. يكون دورها مدمرا أو منعشا اعتمادا على طبيعة تفاعل المجتمع والدولة معها، وهو ما يحدد درجة ونوع تأثير التقنيات على الحياة».

انطلاقا مما سبق، يجيب البحث على عدد من الأسئلة الملحة: ما هو تأثير التقنيات الرقمية وانتشار الاتصالات على البلدان الأقل نمواً؟ هل تجعل الحياة فيها أسهل؟ هل تقدم للناس فرصًا جديدة لتحسن حياتهم؟ يعتقد البعض أن تقنيات الثورة الصناعية الرابعة تسمح للاقتصادات بتخطي المناهج السابقة وتمكين الاقتصادات الناشئة من تحقيق النجاح بشكل أسرع مما كان ممكنًا مع مسارات التنمية الصناعية التقليدية. بمعنى آخر، هل ستتمكن البلدان النامية، كما لو أننا حيال ضربٍ من السحر، من تحقيق قفزة حقيقية بمساعدة هذه التقنيات؟

لمحاولة الإجابة على هذه الأسئلة، يشير المؤلفون إلى تجربة بلدان إفريقيا الاستوائية. يذكرون مثلا أن: «حصة التعليم العالي من إجمالي عدد الشبان صغيرة

في البلدان الإفريقية. في ٢٠١٨ بلغت ٢٤٪ في جمهورية الرأس الأخضر، ١٦٪ في غانا، ١٣٪ في السنغال والكونغو، ١٢٪ في كينيا، ٦,٥٪ في بوركينا فاسو. وفضلا عن ذلك، غالبًا ما يكون هؤلاء الشبان غير مطلوبين في سوق العمل. فنسبة العاطلين عن العمل بينهم أعلى من أقرانهم الذين لم يحصلوا سوى على تعليم ابتدائي أو ثانوي (...) قد يجد المتخرج الحاصل على دبلوم جامعي صعوبة في الحصول على وظيفة أكثر من الأمي الذي ينتظره القطاع غير الرسمي في جميع الأحوال (...) إنه أمرٌ عجيب حقًا لا سيما على خلفية ما يتمُّ إقراره في المنظمات الدولية حول أهمية رأس المال البشري لحصول البلدان النامية على ثمار الثورة الصناعية الرابعة. في هذه الحالة، فإن التناقض بين المهارات التي يوفرها التعليم العالي وبين متطلبات سوق العمل المحلي واضح، ففي جميع هذه البلدان، باستثناء جنوب إفريقيا، يعمل عدد قليل من الشركات ضمن القطاع الحديث (...) ومع ذلك، شرع هذا الوضع في التبلور في العقد الأخير من القرن العشرين (...) في هذا الصدد، سأستشهد بملاحظتي الشخصية لما رأيته في السنغال. ففي خريف عام ١٩٩١ توقفت جامعة الشيخ أنتا ديوب في داكار عن العمل لمدة شهرين بسبب الإضرابات الطلابية (...) لم يحتجّ الطلبة على الرسوم الدراسية، إذ كانت الدراسة مجانية، ولم يكن هناك حديث عن المنح الدراسية وسكنات الطلبة، ولكن الطلاب طالبوا بإتاحة فرص عمل لهم في نهاية دراستهم- (٢٣٤). بالإضافة إلى ذلك، وعند الحديث عن آفاق انتشار التقنيات الرقمية، ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار أنه في عدد من البلدان الإفريقية، لا تحصل نسبة كبيرة من السكان على الكهرباء. ونسبة أولئك الذين يحصلون على الكهرباء منخفضة للغاية في إثيوبيا وجمهورية إفريقيا الوسطى ورواندا وبوركينا فاسو حيث تتراوح بين ٢٠ و ٢٩٪.

بالنسبة للمنطقة الآسيوية، يركز المؤلفون بشكل خاص على ظاهرة الهاليو الكورية، أي الموجة. فمنذ نهاية القرن العشرين بدأوا يطلقون هذه الكلمة الكورية على انتشار الموسيقى والمسلسلات التلفزيونية والألعاب الكورية عبر الإنترنت والطعام والأزياء الكورية وانتقالها خارج الحدود سواء إلى الشرق (الصين واليابان وتايلاند) أو إلى الغرب (روسيا وأوروبا وأمريكا). مما لا شك فيه أن وراء هذه الظاهرة الفريدة سببا لا يقتصر على الجانب الاقتصادي والسياسي ولكن أيضًا على الإمكانيات التكنولوجية

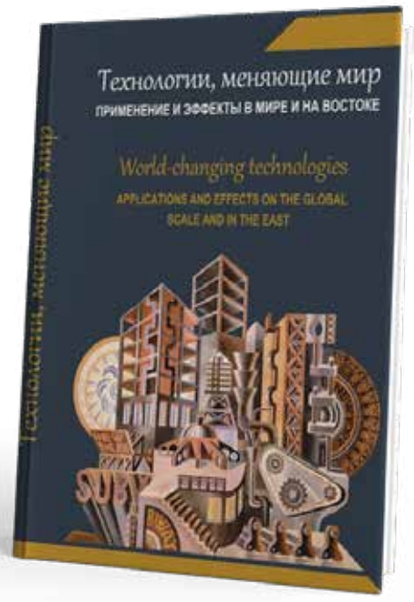

الجديدة. فالجانب الأول كان بمثابة قوة دافعة، بينما شكّل الأخير وسيلة لتصدير منتجات الصناعة الإبداعية الكورية غير المادية خارج البلاد.

لا شك أن ظاهرة هاليو فريدة من نوعها من حيث أنها يمكن أن تحدث فقط في دولة حديثة، متطورة اقتصاديًا ومتقدمة تقنيًا مثل كوريا. «الأشخاص ذوو القوة الاقتصادية لديهم رغبة ثابتة في تعزيز المنتج الثقافي للأمة، والتي في المستقبل، على المدى القصير والطويل، يمكنها رفع مكانة الدولة في السوق الاجتماعية والثقافية والفكرية» (٢٩٧). ونرى بشكل واضح أنه في ظل ظروف التقنيات الجديدة يصبح الإبداع مجالًا واسعًا للعمليات الاقتصادية ويصبح المنتج الثقافي هدفا رئيسيا في السوق الحديثة.

لا بدّ للمؤلفين، والحال كذلك، أن يتطرقوا للإنتاج والخدمات الصينية على مدى العقدين الماضيين حيث حققت الصين قفزة هائلة في تطورها التكنولوجي، كما اقتحمت الشركات الصينية السوق العالمية وأصبحت منافسًا للشركات المصنعة من الولايات المتحدة واليابان وأوروبا وكوريا الجنوبية. كيف حدث هذا؟ وفقًا للطرف الأمريكي، استخدمت جمهورية الصين الشعبية عدة طرق غير شريفة دفعة واحدة، في مقدمتها التجسس الصناعي. فهل الأمر كذلك فعلا؟ يعتقد المؤلفون أنه ليس بهذه البساطة.

«لقد تمَّ تهيأة الظروف للابتكارات على الأراضي الصينية من قِبل حكومة جمهورية الصين الشعبية لفترة طويلة ضمن منهجية محددة. لا شك أن التقنيات الأجنبية لعبت دورًا كبيرًا في ذلك. ومع ذلك، لا يمكن استبعاد مبالغة المنافسين في اتهام الصين بقرصنة الابتكارات وتقليدها» (٦٢). لتحديد ما إذا كان الاتهام صحيحًا أم لا، يجب على المراقب تتبع استراتيجية وتاريخ الإنجاز العلمي والتكنولوجي الصيني وكيف تم إعداده من قبل الدولة. كما يجب النظر في حجم وبنية وخصائص نشاط براءات الاختراع في الصين، والتي بدونها يصعب تخيل نسبة التقليد والابتكار في النمو التكنولوجي للصين. وفي هذا الكتاب يقوم الباحثون بإدراج مثال الطاقة الخضراء بشكل عام ومجالاتها الديناميكية مثل الحفاظ على الطاقة وإنشاء النقل الكهربائي وطاقة الهيدروجين بشكل خاص.

من المناسب في هذا السياق التذكير بموقف الأكاديمي الروسي فيكتور بولتيروفيتش الذي أشار إلى أنه «في مرحلة التحديث لا يعَد إنشاء تقنيات جديدة تمامًا أمرا أساسيا مهما، ولكن ما هو فعّال حقا، استعارة تلك التقنيات التي أثبتت نجاعتها وبعد ذلك يتمّ تحديثها وتوزيعها». ويرى الأكاديمي أنه في ظل اقتصاد متخلف «من المستحيل تحقيق اختراق مبتكر. إذ يحتاج الأمر، بادئ ذي بدء، إلى إنتاج تقنيات جديدة بمساعدة التقنيات المتوفرة بالفعل. ثانيًا، لاستخدام تقنية أو منتج أو طريقة إدارة جديدة في وحدة إنتاجية ما، يلزمنا إجراء تغييرات في العديد من الوحدات الأخرى، وهو ما يتجاوز قدرات حتى أكبر الشركات، وهذا ما يسمى «فخ التنسيق في الصناعة».

تكمن أهمية الكتاب في التركيز على المناطق التي تفتقر إلى التقنيات الحديثة، مثل إفريقيا، أو المناطق التي أظهرت تغيرات كبيرة في المجتمع والثقافة في فترة زمنية قصيرة بسبب إدخال هذه التقنيات، مثل شرق آسيا. ومع ذلك، يبدو لنا أن ما ينقص الكتاب - الالتفات إلى منطقة الشرق الأوسط التي تشهد تجاذبا لا يستهان به في عالم التقنيات وتأثيراته المباشرة والمستقبلية على المجتمع والحياة.

الكتاب: التقنيات التي تغير العالم: تطبيقها وآثارها في العالم وفي الشرق.

المؤلف: مجموعة مؤلفين

الناشر: نيستور إستوريا/سانت بطرسبورغ/2021

اللغة: الروسية

عدد الصفحات: 452

* أكاديمية ومستعربة روسية

قوة الجغرافيا

تيم مارشال

علي الرواحي*

للجغرافيا جانبان: إيجابي، وسلبي؛ فهي في بعض الفترات التاريخية، تصبح عامل جذب ومحل أطماع الكثير من الدول، وفي بعضها الآخر تصبح عاملا رئيسا للحرب والصراعات. تضع الجغرافيا، وليس المسار التاريخي، الكثيرَ من الدول في وضع دفاعي بشكلٍ مُستمر، وفي حالة تأهب دائمة، كما هو الحال في أستراليا، التي تقع بين الصين والولايات المتحدة الأمريكية. وفي البحر الأبيض المتوسط، دخلت اليونان وتركيا في منافسة تعود جذورها إلى العصور القديمة، لكنها قد تتجدد هذه المنافسات في أي وقتٍ غير متوقع.

وهذا ينطبق بطبيعة الحال على الشرق الأوسط، فالمملكة العربية السعودية وإيران تعيشان منذ فترة طويلة على وقع تنافس محتدم بشكلٍ مستمر؛ فبعد نهاية الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي السابق، دخلنا عصرا جديدا من التنافس بين القوى العظمى حيث يتنافس العديد من الأطراف، حتى اللاعبين الصغار، على احتلال مركز الصدارة. فالدراما الجيوسياسية تتسرب حتى من عالمنا الأرضي، حيث تراهن الدول على مطالباتها فوق غلافنا الجوي، إلى القمر وما وراءه.

بعد كتابه «سجناء الجغرافيا» Prisoners of Geography الصادر في عام ٢٠١٦م، يتمعن تيم مارشال في كتابه «قوة الجغرافيا» في الجبال والأنهار والبحار لفهم الحقائق الجيوسياسية؛ فالجغرافيا هي عامل رئيس يحد من الإمكانيات للبشرية أن تفعله وما لا تستطيع فعله؛ فالسياسيون مهمون، لكن الجغرافيا أكثر أهمية. كما أن الخيارات التي يتخذها النَّاس، الآن وفي المستقبل، لا تنفصل أبداً عن سياقهم المادي؛ ذلك أن نقطة البداية لقصة أي دولة هي موقعها بالنسبة للجيران والطرق البحرية والموارد الطبيعية. هل تعيش في جزيرة تعصف بها الرياح على أطراف المحيط الأطلسي؟ وهل هي في وضع جيد لتسخير الرياح والأمواج؟ هل تعيش في بلد تشرق فيه الشمس ٣٦٥ يومًا في السنة؟ وغيرها من العوامل التي تحدد الكثير من المواضيع.

في مقابل ذلك، هناك ازدراء لدى بعض الناس لنقطة البداية هذه لأنها تعتبر حتمية؛ ففي السابق، كان هناك حديث عن «عالم مسطح» حيث انهارت المعاملات المالية والاتصالات عبر الفضاء الإلكتروني، وأصبحت المناظر الطبيعية بلا معنى. ومع ذلك، فإنَّ هذا العالم يسكنه عدد قليل جدا من الأشخاص الذين يتحدثون بشكلٍ جيد عن بُعد، ثم يطيرون لاحقا فوق الجبال والبحار للتحدث شخصيا، لكنها ليست تجربة مُعظم ٨ مليارات شخص على وجه الأرض؛ فالمزارعون المصريون مازالوا يعتمدون على إثيوبيا للحصول على المياه، كما أنَّ الجبال الواقعة شمال أثينا لا تزال تُعيق تجارتها مع أوروبا. فالجغرافيا ليست قدراً - البشر لهم حق الاختيار فيما يحدث - لكنها مهمة. غير أن هناك العديد من العوامل التي ساهمت في تشكيل ما سيحدث، ولكن بشكل غير مؤكد، بينما نتقدم نحو حقبة جديدة؛ فالعولمة ومناهضتها وكوفيد والتكنولوجيا وتغير المناخ كلها لها تأثير كبير. يبحث كتاب قوة الجغرافيا في بعض الأحداث والصراعات التي ظهرت في القرن الحادي والعشرين مع احتمال حدوث عواقب بعيدة المدى في عالم متعدد الأقطاب.

إيران، على سبيل المثال، ترسم مستقبل الشرق الأوسط، والمملكة العربية السعودية، منافستها الإقليمية، دولة مبنية على النفط، كما يقول الكاتب، لطالما اعتبرت الولايات المتحدة حليفاً. ولكن مع انخفاض الطلب على النفط تصبح الولايات المتحدة أكثر اعتماداً على الطاقة، فإن اهتمامها بالشرق الأوسط سوف يتضاءل ببطء. في أماكن أخرى، ليس النفط هو سبب الاضطرابات، وباعتبارها «برج المياه في إفريقيا»، تتمتع إثيوبيا بميزة حاسمة على جيرانها، ولا سيما مصر. هذا أحد المواقع الرئيسية لـ«حروب المياه» المحتملة هذا القرن، ولكنه يظهر أيضاً كقوة عن طريق استخدامها للتكنولوجيا حيث تستخدم إثيوبيا الطاقة الكهرومائية لتغيير حظوظها.

بالإضافة لذلك، وباعتبارها بوابة الوصول إلى أوروبا، تعد اليونان واحدة من أوائل الدول التي بدأت تشعر بآثار موجات الهجرة الجديدة، كما وضعتها جغرافيتها في قلب واحدة من بؤر التوتر الجيوسياسي في السنوات القادمة: شرق البحر الأبيض المتوسط، حيث حقول الغاز المكتشفة حديثا تضع هذا العضو في الاتحاد الأوروبي على شفا صراع مع تركيا.

دولة أخرى فقدت إمبراطوريتها، هي المملكة المتحدة، وهي مجموعة من الجزر الباردة في الطرف الغربي لسهل شمال أوروبا، لا تزال تبحث عن دورها. بعد خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، قد تقوم دولة كقوة أوروبية متوسطة المستوى بتشكيل روابط سياسية واقتصادية حول العالم، لكن التحديات التي تواجهها داخلية وخارجية على حد سواء، حيث إنها تصارع احتمال استقلال أسكتلندا.

بناء على هذه المقدمة، يتناول تيم مارشال، الصحفي المخضرم في الكثير من القنوات الصحافية والإذاعية منذ سنوات طويلة، بالتفصيل عشر دول مختلفة تطرق لبعضها في المقدمة بشكلٍ مختصر، ومن ضمنها طبعاً أستراليا، والسعودية، وإيران، والمملكة المتحدة، وتركيا، وإسبانيا، ودول الساحل الأفريقي. كما تحدث عن القمر كوجهة جغرافية تتصارع عليها الكثير من الدول وتُنفق عليها المليارات من الدولارات.

أستراليا تعتبر الآن من الدول المتصدرة في مجالات كثيرة. كيف حدث هذا؟ فهي جزيرة لا مثيل لها وضخمة جداً لدرجة أنها تمثل قارة تضم غابات مطيرة شبه استوائية مورقة، وصحراء شديدة الحرارة، وغابات متماوجة وجبالا مُغطاة بالثلوج؛ فالقيادة بالسيارة من بريزبين إلى بيرث كأنك تعبر بلدا واحدا، ولكن هذه المسافة المماثلة ستكون من لندن إلى بيروت عبر فرنسا وبلجيكا وألمانيا والنمسا والمجر وصربيا وبلغاريا وتركيا وسوريا. فعندما تكون في الوسط، من بريزبن التي تتطلع إلى الشمال الشرقي عبر المحيط الهادئ، فهي تبعد ١١٥٠٠ كيلومتر عن الولايات المتحدة الأمريكية، والشرق هو أمريكا الجنوبية على بعد ١٣٠٠٠ كيلومتر، وغرب بيرث عبر المحيط الهندي ٨٠٠٠ كيلومتر. حتى نيوزيلندا «المجاورة» لأستراليا تقع على بعد ٢٠٠٠ كيلومتر إلى الجنوب الشرقي ومن هناك إلى القارة القطبية الجنوبية حيث يوجد ٥٠٠٠ كيلومتر أخرى من المياه. فقط عندما ننظر إلى الشمال نرى الموقع الحقيقي لأستراليا بالمعنى الجيوسياسي؛ فهناك توجد، ديمقراطية متطورة إقليمياً، ذات توجه غربي، وفوقها أقوى ديكتاتورية في العالم اقتصاديا وعسكريا، إنها الصين، وعندما نضع كل ذلك معا سنرى دولة / قارة وطنية في منتصف المحيط الهندي.

بدأت قصة أستراليا عندما قرر البريطانيون إبعاد المحكوم عليهم، وأرادوا إبقاءهم بعيداً قدر الإمكان، ثم لم يرغبوا في فعل شيء معهم، وفي مكان لا يمكنهم العودة منه أبدا، تم حبسهم وألقي المفتاح بعيدا، بحيث لا يستطيعون العودة لبلدانهم مرة أخرى.

فيما يتعلق بالسياسة الخارجية والدفاع، فإنَّ نقطة البداية لبلد ما ليس ما تنوي القيام به ولكن ما تستطيع القيام به، وغالباً ما يكون ذلك مقيدًا بالجغرافيا. يمثل حجم وموقع أستراليا قوة وضعفا في نفس الوقت؛ فهو يحميها من الغزو ولكنه أوقف تطورها السياسي. لذلك فهي معزولة بسبب بعدها عن حلفائها الرئيسيين.

من الناحية الطبيعية، أصبحت أستراليا جزيرة منذ حوالي ٣٥ مليون سنة فقط بعد أن انفصلت عن القارة القطبية الجنوبية وانجرفت شمالاً، فهي حالياً في مسار تصادمي مع إندونيسيا، ولكن لا ينبغي أن يشعر سكان كلا البلدين بالقلق الشديد لأنها تتحرك بسرعة سبعة سنتيمترات في السنة ولديهم عدة مئات من ملايين السنين للاستعداد لمثل هذه الآثار المحتملة.

بالإضافة لأستراليا، تحضر إيران بشكل كبير عند الحديث عن الجغرافيا، فهي تتحدد خلال ميزتين جغرافيتين: جبالها، التي تشكل حلقة من القشرة على معظم حدودها، والصحاري الملحية في الغالب من الداخل، والتي تمتد على طول تلال منخفضة المدى متوازية تقريباً مع بعضها البعض الجبال تجعل إيران حصناً منيعاً عند الاقتراب منها من معظم الزوايا، سرعان ما تصطدم بالأرض المرتفعة التي لا يمكن عبورها في العديد من الأماكن. تحيط الجبال بالأراضي البور الداخلية المقفرة في صحراء كفير وصحراء لوط Dasht-e Lut.

تُعرف صحراء كفير باسم صحراء الملح الكبرى، حيث يبلغ طولها حوالي ٨٠٠ كيلومتر وعرضها ٣٢٠ كيلومترا - أي بحجم هولندا وبلجيكا مجتمعتين، وليس هناك الكثير مما يمكن رؤيته في هذه الصحراء الممتدة، في بعض الأجزاء، تخفي طبقات الملح الموجودة على السطح الطين بعمق كاف لتغرق فيها؛ حيث تبدو الصحراء الرئيسية الأخرى أكثر جاذبية، أو التي تُعرف باسم «سهل الخراب». لهذا السبب، حتى لو كانت هناك أهداف ذات طبيعة حربية، فمن غير المرجح غزو إيران، خاصة في العصر الحديث للجيوش الكبيرة والمحترفة التي تسيطر عليها دول قوية. بالنسبة للماضي، كانت الأرض تُعرف باسم بلاد فارس، وتم تغيير اسمها فقط إلى إيران في عام ١٩٣٥م في محاولة لتمثيل الأقليات غير الفارسية في البلاد، والتي تشكل حوالي ٤٠ في المائة من السكان، حيث تغيرت حدودها عبر القرون.

داخليا، المناظر الطبيعية المقفرة والتي لا ترحم هي السبب في أن جميع الإيرانيين تقريبا يعيشون في الجبال، نظرا لصعوبة اجتيازها، تميل المناطق الجبلية المأهولة إلى تطوير ثقافات متميزة، حيث تتشبث الجماعات الإثنية بهوياتها وتقاوم الاستيعاب، مما يجعل من الصعب على الدولة الحديثة تعزيز الشعور بالوحدة الوطنية. وبسبب جبالها، فإنَّ المراكز السكانية الرئيسية في إيران مشتتة على نطاق واسع، وحتى وقت قريب، ضعيفة الاتصال. حتى الآن، نصف طرق الدولة فقط معبدة. لذلك على الرغم من أنَّ جميع السكان إيرانيون، فإنهم ينتمون إلى مجموعات عرقية مختلفة.

الأكراد هم أحد أفضل الأمثلة على احتفاظ سكان الجبال بثقافتهم في مواجهة سياسات الاستيعاب للدولة؛ حيث يصعب تحديد أعداد السكان بدقة، فالحكومة تفضل عدم الكشف عن الإحصاءات الإثنية؛ لكن معظم المصادر تشير إلى أن الأكراد يشكلون حوالي ١٠ في المائة من السكان، ربما ٨,٥ مليون شخص. وهم ثاني أكبر أقلية بعد الأذربيجانيين (١٦ في المائة). يعيش معظمهم في جبال زاغروس المتاخمة للأكراد في العراق وتركيا، والذين يتشاركون معهم حلم إقامة دولة كردية مستقلة. إن عرقهم ولغتهم وروحهم المستقلة وحقيقة أن معظمهم من

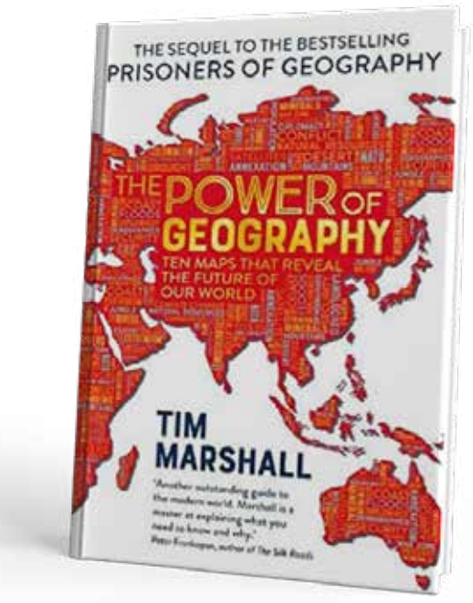

المسلمين السنة في بلد يسيطر عليه الشيعة قد جعلهم في صراع مع السلطات المركزية لقرون. وسط الارتباك الذي حدث في نهاية الحرب العالمية الثانية، أعلنت منطقة كردية صغيرة استقلالها، لكنها صمدت أقل من عام بمجرد قيام الحكومة المركزية بإرساء الاستقرار في البلاد. امتدت أحدث انتفاضاتهم، التي أعقبت الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩م، الجيش الإيراني ثلاث سنوات لإخمادها. يتركز الأذربيجانيون في مناطق الحدود الشمالية بالقرب من أذربيجان وأرمينيا؛ بينما يعيش التركمان بالقرب من الحدود التركية، والعرب، الذين يبلغ عددهم حوالي ١,٦ مليون، يتجمعون بالقرب من ممر بحر العرب المائي المقابل للعراق.

ليس بعيدا عن هذه التجاذبات الجغرافية، نجد المملكة المتحدة بتاريخها الاستعماري الكبير، أو التي سميت قديماً الأرض التي لا تغيب عنها الشمس حاضرة وبقوة عند الحديث عن الجغرافيا، حيث تسارعت القوة الاقتصادية والعسكرية لبريطانيا في النمو بعد أن انضمت قوانين الاتحاد في عام ١٧٠٧م إلى اسكتلندا وإنجلترا ككيان واحد.لأول مرة في تاريخها، سيطرت سلطة واحدة على الجزيرة. في حين أنه بعد ثلاثة قرون، كان التصويت على خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي يعتبر خطرا على هذا الاتحاد، وعلى الرغم من أن لندن لم تعد تخشى غزوا من فرنسا كما كان في السابق، إلا أنها قلقة للغاية بشأن الآثار الاقتصادية والعسكرية لاستقلال أسكتلندا.

في حوالي ١٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد، انفصلت أيرلندا عن بريطانيا بسبب ارتفاع منسوب مياه البحر الذي غمر الأرض الواقعة بين ما يعرف الآن ببريطانيا وأوروبا القارية، مما جعل بريطانيا جزيرة. لتكون أكثر دقة، بريطانيا مكونة من جزر، الآلاف منها إذا عدت بالحجم وما هو فوق الماء عند المد العالي؛ لكن حوالي ٢٠٠ جزيرة منها فقط مأهول بالسكان. تشمل المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وأيرلندا الشمالية جزر هيبريدس وأوركني وشيتلاند في أقصى الشمال، وجزر سيلي وجزيرة وايت على بعد ١٠٠٠ كيلومتر إلى الجنوب، وجزيرة أنجلسي، قبالة الساحل الويلزي، إلى الغرب. لديها وصول مباشر إلى القناة الإنجليزية وبحر الشمال والبحر الأيرلندي والمحيط الأطلسي، يبلغ عرضه على أوسع نطاق ٥٠٠ كيلومترا فقط، وبسبب خط الساحل المتعرج، لا يبعد أي جزء منه عن البحر أقل من ١٢٠ كيلومتراً.

لا تقتصر المنافسة بين الدول على الأرض فقط، بل أخذ القمر جانبا كبيرا من هذا التنافس، بحسب المؤلف، أو بمعنى أصح المستعمرات على القمر. فمنذ أن اندفع الإنسان عبر الغلاف الجوي للأرض وخارجه، متجها إلى ما لا نهاية، أصبح الفضاء ساحة معركة سياسية. في هذا السياق لا تقتصر الجهود والتنافس على الأراضي المادية التي قد تحاول البلدان المطالبة بها - على القمر أو المريخ، على سبيل المثال - ولكن، كما في القرون السابقة على الأرض، محطات التزود بالوقود اللازمة للوصول إلى هناك، ونقاط الاختناق على طول الطريق. فإذا لم يتمكن البشر من الاتفاق على إطار عمل قانوني يحكم استخدامهم والأراضي التي يقودون إليها، فسيترتب على ذلك أنه قد ينتهي بهم الأمر إلى القتال عليها تماما كما فعلوا على الأرض في معظم تاريخ البشرية.

علاوة على ذلك، لم توقع روسيا ولا الصين على الاتفاقيات، حيث كان كلاهما فاترا بشأن الفكرة، لكن حتى لو أرادوا المشاركة، فسيتم استبعادهم؛ إذ كان من الممكن أن تكون روسيا شريكا لوكالة ناسا في محطة الفضاء الدولية، لكن تم تجميدها بعد أن اتهمتها قوة الفضاء الأمريكية المشكلة حديثًا بتتبع أقمار التجسس الصناعية الأمريكية بطريقة خطيرة و«غير عادية ومقلقة». لا يمكن أن تكون الصين جزءًا من الاتفاقية أيضا؛ لأن الكونجرس منع «ناسا» من العمل مع بكين. روسيا والصين لديهما خططهما الخاصة للقواعد القمرية، رغم ذلك، وليستا على وشك السماح للمنافسين بوضع مجموعة من «القواعد» التي لا تشملهما؛ فالمضي قدما في السفر للفضاء، دون اتفاق الجميع، وفقا لرئيس وكالة الفضاء الروسية، دميتري روجوزين، يعتبر «غزوا» للقمر يمكن أن يحوله إلى «أفغانستان أو عراق أخرى». في ختام هذا العمل، الذي يتطرق لمنطقة مهمة جدا في الحقل الجغرافي السياسي أو الجيوبوليتيك ، نجد أن الجغرافيا السياسية تؤثر بشكل كبير على العلاقات الدولية منذ القدم، فهي تساهم في الهجرة، وفي توزيع الثروات، ومستويات الجمال والمعرفة، والطاقة، كما أن الجغرافيا تؤسس بشكل مستمر لتحالفات متجددة بين أمم ودول لا تجمعها روابط ثقافية كاللغة أو الدين وغيرها.

الكتاب: قوة الجغرافيا

المؤلف: تيم مارشال

الناشر: Elliott & Thompson Ltd

عدد الصفحات: 347

لغة الكتاب: الانجليزية

* كاتب عُماني

الصيف الذي أصبحت فيه أسود

أنجليك بلندر بالاشتراك مع مارتين ر. دين.

رضوان ضاوي *

غالباً ما يُشار إلى سويسرا على أنها بلد الحياد، بلد مُنفتح على الاختلاف، ونصيرٌ للتعددية الثقافية. لكنّ أصواتاً متزايدة ترتفع في سويسرا لإدانة العنصرية العادية أو الممنهجة والحوادث العنصرية، وبعضها يكون مأساوياً. لهذا أراد المؤلّفان السويسريان أنجليك بلندر ومارتين ر. دين إسماع أصواتِ بعضٍ من ضحايا العنصرية، وتوثيق تجربتهما مع الاختلاف والعنصرية من خلال نشر هذا الكتاب بعنوان «الصيف الذي أصبحت فيه أسود» للصحفية أنجليك بلدنر بالاشتراك مع الكاتب مارتين ر. دين. وتشتغل بلندر محررة ومنشطة في إذاعة وتلفزة SFR منذ 2008. أما الكاتب الأديب السويسري مارتين ر. دين فقد نشر الكثير من الكتب التي تتناول موضوع العنصرية.

يُشير المؤلفان في مقدمة هذا الكتاب إلى أنهما لم يكونا يفكران في توثيق تجاربهما الخاصة بالعنصرية في فيلم أو في كتاب. فهما لم يتحدثا طوال حياتهما عن لون بشرتهما. ذلك أنهما أرادا أن يُنظر إليهما بوصفهما أشخاصاً وأفراداً، بوصفهما مواطنين سويسريين، وحتى كوسموبوليتيين. وهما لا يُريدان أن يكون لون بشرتهما مُهمًّا، لا بالخير ولا بالسوء. ويؤكد المؤلفان على رغبتهما التي تتمحور حول تحقيق أهدافهما في الحياة رغم لون بشرتهما. وكانت هذه الإستراتيجية فعّالة وعملا جيدا يحسب لهما؛ ذلك أن فكرة العنصرية مستبعدة بالنسبة لهما. ليس لأنهما لم يختبراها أو يجرباها، ولكنهما لم يكونا يرغبان في منحها مساحة أو مجالاً في حياتهما.

يدخل موضوع هذا الكتاب في حقل «دراسات بياض البشرة النقدية»، وهو مجال يركز على النواحي الثقافية والتاريخية والاجتماعية لـ«بياض البشرة» ويفحص كيفية نشوء هويات البيض والسكان الأصليين، وكذلك الأفارقة/السود، وكيف تفاعلت المؤسسات الاستعمارية والعمل الصناعي معها، مما يؤكد وجهة النظر التي تقول إن «لون البشرة» لا يمكن تجاهله ببساطة، وأنه وجب نقد «المعيار الأبيض».

ويؤكد المؤلفان أن التحوّل في وجهة نظرهما حول الحديث عن العنصرية جاء في صيف ٢٠٢٠ الذي تغير فيه كل شيء. ففي ٢٥ مايو ٢٠٢٠، توفي المواطن الأمريكي من أصل أفريقي جورج فلويد، نتيجة لعنف الشرطة الأمريكية الوحشي. ثبتت الشرطة فلويد على الأرض بُغية اعتقاله حيث قام ضابط الشرطة منيابولس بالضغط على عنق فلويد بركبته لمنعه من الحركة أثناء الاعتقال لما يُقارب تسع دقائق، وأُعتُقل الرجل بعد محاولته المزعومة استخدام ورقة عشرين دولارا أمريكيا في محل بقالة للسجائر والصودا، وصفها الموظف بأنها مزورة. وزعمت الشرطة أنَّ فلويد «قاوم جسدياً»، بعد أن أُمر بالخروج من سيارته قبل تصوير الفيديو. وقد سجّل أحد المارّة مقطع فيديو، أظهر فلويد الموقوف يُردد بشكل متكرر «لا أستطيع التنفس»، وانتشرت على نطاق واسع على منصات وسائل التواصل الاجتماعية، وبثتها وسائل الإعلام. يوضح المؤلفان أن فلويد ربما لم يكن متعاوناً في البداية مع الشرطة الأمريكية، لأنَّ تجارب ضباط الشرطة سيئة مع السود الآخرين. وقد كان الرجل الأسود بسبب تلك التجارب قلقا ومضطربا. بالتالي يقارن المؤلفان مقتل فلويد مع مقتل إريك غارنر عام ٢٠١٤، وهو أيضاً رجل أفريقي أمريكي غير مسلّح، كرّر أيضاً عبارة «لا يمكنني أن أتنفّس» أحد عشر مرة بعد أن جثا أحد ضبّاط شرطة نيويورك بركبته على عنقه أثناء الاعتقال. هذه العملية البوليسية العنيفة التي قام بها ضابط شرطة أمريكي أبيض ضد مواطن أسود لم تكن الأولى. لكن هذه الحادثة بالذات هي التي جعلت العالم كله يخرج إلى الشوارع، وجعلت الكاتبة بلدنر مع الكاتب مارتين دين يقرران كتابة تجاربهما مع العنصرية.

وما ساعد على تأليف هذا الكاتب أن سويسرا احتجت على العنف ضد السكان السود في الولايات المتحدة، وضد العنصرية التي لا تزال موجودة في العديد من الأماكن الأخرى في العالم، بما في ذلك سويسرا. في هذا الصيف، طغى موضوع العنصرية على ما عداه من مواضيع، في كل مكان: في الشارع، وفي البيت، وفي وسائل الإعلام. وكان هذا هو الصيف الذي لم يعد يستطيع فيه الكاتبان تجاهل لون بشرتهما، وتجاهل عدد كبير من الناس ممن يقللون من أهمية كل شخص أسود اللون في هذا البلد. في وطنهما، حيث كانا يشعران بسعادة وأرادا أن يظلا سعيدين، واجها فجأة الكثير من الدعم الذي لم يطلباه، ولكن في نفس الوقت أيضاً الكثير من الفهم. كان هذا هو الصيف الذي أدرك فيه الكاتبان أنهما دائمًا ما قللا من أهمية كل شيء وقمعا أي تجربة تمييز، وأن الصمت لن يؤدي إلى أي تغيير على الإطلاق.

التزم المؤلفان من خلال هذا الكتاب بالمقاومة بالكلمة، وبالكتابة، وبالنقاشات العميقة. شيء مهم يقول لهما إنه يجب أن يكونا مختلفين عن الأغلبية في هذا البلد، وأنه بالتالي عليهما أن يتصرفا مثل الأغلبية، أن يتحدثا مثلهم، وأن يتوافقا معهم، ولكن رغم ذلك سيظل يوجد دائمًا شيء ما يدل على أنهما ما يزالا مختلفين. هذا هو الصيف الذي توقف فيه الكاتب عن اعتبار لون بشرته عائقًا، وقد أصبح صيف ٢٠٢٠ رمزا ثقافيا وإثنيا، فهو صيف التوافق مع اللون الأسود. هنا بدأ الكاتب في التصدي للعنصرية في بلده. وقد أدرك الكاتب ما يؤدي إليه الصمت ونتيجة الصمت، فطوّر استراتيجيات سمحت له بتجاوز أزمة العنصرية بشكل جيد. ذلك أنه يمكن للمرء أن يتعلم من أخطائه. في صيف ٢٠٢٠ تم بث الفيلم الوثائقي على قناة SRF ضمن سلسلة المراسل بعنوان «العنصرية في سويسرا: الصيف الذي أغمي عليّ فيه» الذي أنجزته المؤلفة بلندر، بعد مشاهدة هذا الفيلم، تلقت بلدنر مئات الردود بين داعم، ومتفهم، ومتسائل ومؤكد، وناقد. أعطت كل ردود الفعل هذه صورة لما وصلت إليه سويسرا عندما يتعلق الأمر بالعنصرية ابتداءً من عام ٢٠٢٠، فجاءت فكرة التعمق أكثر في موضوع العنصرية في هذا الكتاب ودمج بعض هذه التأملات والتعليقات فيه.

وجاء هذا الكتاب على شكل حوار بين بلندر ومارتين ر. دين، الذي كتب تعليقاته في البريد الإلكتروني معبرا عن تأثره بالبرنامج، لأنه يصف أيضا جزءًا من سيرته الذاتية بصفته ابنا لأب من ترينيداد، وقد نشأ في مينزيكن في أرغاو في الخمسينيات من القرن الماضي. كان مارتين دين قد وصف العنصرية في العديد من كتبه، لكن في هذا العام كان لديه انطباع بأن السويسريين سمعوا بهذه التجارب وعايشوها. كما تلقت المؤلفة تشجيعا من حركة «حياة السود مهمة»، وهي حركة نشيطة نشأت في المجتمع الأمريكي الأفريقي في ٢٠١٣ تهدف إلى التخلّص من العنف ضد الأشخاص السود. وتنظّم الحركة مظاهرات ضدّ مقتل أفراد من العرق الأسود من قبل ضباط الشرطة وضد التنميط العنصري وعنف الشرطة واللامساواة القائمة على العنصرية في النظام القضائي في الولايات المتحدة.

وهذا الكتاب عمل مشترك يلتزم بموضوع العنصرية. كانت هي بداية العلاقة بين بلندر ومارتين دين منذ خريف ٢٠٢٠ بتبادل الأفكار بانتظام حول الهوية والخبرات والتجارب، ومن خلال فكرة خلق حدث أو عمل مشترك وإنجاز فكرة هذا الكتاب على شكل حوار، وردود أفعال حول الفلم الوثائقي. وتتلقى السيدة تعليقات وردود فعل على الفلم، من خلال الرسائل القصيرة أو البريد الإلكتروني أو حتى مكالمات هاتفية أو رسائل صوتية أو تعليقات تفاعلية. كتبت هذه التعليقات باللغات الألمانية والفرنسية والإنجليزية، وأغلب المراسلين وافقوا على ضمّ تعليقاتهم على الفلم الوثائقي إلى الكتاب. وتحتوي هذه التعليقات التي تتحدث عن تجارب القراء في العنصرية في سويسرا وتتوفر ردود الفعل هذه على كلمات ذات مدلول عنصري واقعي.

يتطرق المؤلفان إلى موضوع «لون البشرة»، ذلك أن لون بشرتهما في مجتمع أغلبه من البيض، تعد علامة على الغيرية، ويعد مفهوم «لون البشرة» في اللغة الناقدة للعنصرية تصنيفا مبتكراً. كما يهتم هذا الكتاب بالمفاهيم ذات المحتوى العنصري مثل حداثة، وإفريقيا، وأوروبا، وترجمة، وألماني أسود، وأفرو-ألماني والألماني الآخر، وهي مصطلحات تدل على تسمية ذاتية لأشخاص مضطهدين عرقيا، وتبقى لاسم «أسود» دلالة سياسية ذاتية للأشخاص الذين عانوا

من العنصرية والاستعمار. وقد يكون من المفيد الإشارة إلى المسرد في ملحق هذا الكتاب الذي يوفر لائحة مهمة بأهم المفاهيم والمصطلحات المتداولة في مجال العنصرية. وهذا ما شجع مارتين دين وأنجليكا بيلدنر على الإدلاء بشهادتما وتوثيقها في هذا الكتاب الحواري، ففي سويسرا يوجد ملونون يقللون من وجود العنصرية التي لها ضحايا بوصفها ظاهرة اجتماعية. فقد كانت المظاهرات في صيف ٢٠٢٠ تعبيرا عن غضب ضد العنصرية التي جُلبت إلى سويسرا. ويؤكد المؤلفان أن مفهوم الميشلينج، أحد دعائم نظرية العرق عند النازية، قد تقادم استعماله، وأنهما تجنبا استعمال مفهوم «أفريقي/أفريقاني»، لأنه مفهوم يثبت تصورات الصور النمطية السلبية بوصفه «الآخر»، وهو مفهوم لا يسمح بأي تمايز بين سكان القارة الإفريقية، الأمر الذي تؤكده مجموعة من الدراسات السابقة مثل الكتاب النقدي والمرجعي بعنوان «كيف تنطق العنصرية من خلال الكلمات: إرث الاستعمار في الإرشيف العلمي للغة الألمانية» لسوزان أرندت ونادية أوفواتي « الأتزارد (٢٠١٩)، وكتاب «تشييد التشكيل والهجنة الثقافية بين الذاتي والأجنبي: دراسة تثاقفية عن صورة الإفريقي في نموذج «في مكان ما في إفريقيا» لستيفان تسفايغ» لغبرييل ثيور (٢٠٢٠)، وفي قصيدة الشاعرة الإفريقية-الألمانية ماي أييم بعنوان «شائن وبلا حدود: قصيدة ضد الوحدة الألمانية (الزائفة)، ضمن كتاب «البلوز في أسود-أبيض، أغنية ليلية»، (٢٠٢١).

ويمكن أن نقرأ بتمعن ملاحظة مهمة للمؤلفين تقول إنه لا توجد دائما ترجمات ألمانية أو حتى عربية لمجموعة من المفاهيم التي ظهرت في حركة الحقوق المدنية الأمريكية في الستينيات، ومعظم الكلمات المقابلة لهذه المفاهيم هي ترجمة قابلة للتساؤلات والنقد. ومن بين المفاهيم التي يرتكز عليها مضمون هذا الكتاب المشترك مفهوم «عنصرية عمياء الألوان»، وهو مفهوم يصف ظاهرة البيض الذين ينطقون بعبارة «الملونون» دون النظر إلى لون بشرتهم، وبالتالي هم ينفون التمايز الموجود في العالم.ومفهوم «السود والملونون»، حيث يشير مفهوم السود إلى السكان الأصليين، أما «الأشخاص الملونون» فهو الوصف الذاتي للأشخاص والجماعات التي عرفت تجارب عنصرية، ويعتبر المصطلح جزءًا من بناء النظرية العرقية والمصطلح الاستعماري. بينما تم التخلي عن مفهوم «ذي بشرة داكنة» في نقد اللغة العنصرية، لأنه مرادف للآخر بالمعنى القدحي. ويعني مفهوم «الموروس» «أسود»، وكان المصطلح يستخدم سابقًا للإشارة إلى السود، بشكل سلبي، وهو يعتبر اليوم إشارة عنصرية. واستخدم المصطلح «هجين» سابقًا لأشخاص من أبوين أسود وأبيض، وهو مستعار من مملكة الحيوان ومشتق من نظرية عرقية. واعتبر المؤلفان مفهوم «العنصرية الإيجابية» مصطلحا مضللا إلى حد ما، فهو يعطي صفات نمطية تراتبية للسود، مثلا كالقول: يمكن لجميع السود القيام بالرقص الجيد، ويمكن للسود الركض بشكل أسرع. وحتى لو كانت هذه الصفات حسنة النية، فهي كليشيهات تعزز القوالب النمطية والأحكام المسبقة وبالتالي تديم مفهوم العنصرية. وبنفس المعنى تقريبا يأتي معنى «التنميط العنصري» الذي يشير إلى تعرض الناس إلى التضييق لدوافع عنصرية مثل لون البشرة في الجمارك ومع الشرطة.

ويحاول المؤلفان تلخيص تصورهما للعنصرية بالحديث عن إيديولوجية تبرر التمييز العنصري حسب تصنيف المجموعات السكانية أو البيولوجية أو الخصائص العرقية الثقافية للآخرين.

ويشير المفهوم إلى طريقة التفكير والموقف والتصرف بوعي أو بغير وعي، بطريقة عنصرية. وتصنف لجنة الكونفدرالية لمناهضة العنصرية العنصرية كظاهرة، بينما ليس السود فقط من يتعرض لها، ولكنها تبدو أكثر وضوحا معهم. بالتالي فإن العنصرية ليست مشكلة فردية، بل نظام ترتيب وتصفيف وتمييز له تاريخ طويل. بينما تشكل العنصرية البنيوية نوعا من العنصرية الذي يتم التعبير عنه في الهياكل الاجتماعية؛ على سبيل المثال، مشاكل السكن والبحث عن العمل والأجور أو التوزيع غير المتكافئ للموارد من الاجتماعية، السياسية، الوسائل الاقتصادية والثقافية.

في التقرير الرائع على القناة السويسرية، أبدت أنجليكا شجاعة كبيرة لتعلن عن تجربتها بوصفها امرأة سويسرية سوداء. قرر الباحثان بدأ المحادثة انطلاقا من تجاربهما الشخصية، ومن حقيقة أنهما عانيا من التمييز، فهما يستمدان الحق في التحدث عن الموضوع علنا. إذن الغرض هو السير حثيثا من أجل تحرير الأقليات العرقية، والاهتمام بالأشكال العديدة التي تثير السلوك العنصري، وأثر التمييز على الحياة الطبيعية للناس. ويهدف الكتاب إلى أن يكون وثيقة لمناقشة مشتركة بين المتضررين؛ فقد أصبحت العنصرية والتنوع من الموضوعات المهيمنة في سويسرا. كان صيف ٢٠٢٠ شرارة أولية للكاتبين. ولكن من المهم الإشارة إلى أن إرهاصات سابقة بدأت بمناقشة التمييز والتنميط العنصري. فقد تمت إدانة العنصرية حيث سبق حوادث بازل انتقاد السود بشدة للرسم الكاريكاتوري الذي يصور أفريقيًا يشبه آكلي أسود يرتدي تنورة مع عظم في شعره. وكره الأجانب والعنصرية لهما جذور مختلفة في سويسرا؛ فقد تم نقل مشاعر كره الأجانب قبل الحرب العالمية الثانية كدفاع ذكي ضد كل شيء أجنبي. لكن ظهور الصور المهينة للآخرين التي تخلق أنماطًا عنصرية من الإدراك والفكر تعود إلى أبعد من ذلك بكثير في تاريخ الاستعمار والأنثروبولوجيا.

ويحث المؤلفان في كتابهما المجتمع السويسري الذي أصبح أكثر تنوعا، على مواجهة الوضع ويهتم بمدى الحاجة لنقاش حول المساواة والتفاوض حول الصور الاستعمارية للأجانب. كمواطنين سويسريين، يحاول المؤلفان خلق لغة لهما للعثور على هذه الخبرات والمواقف لمشاركتها مع الآخرين؛ فعندها فقط يكون المجتمع خاليا من هذه الآفة العنصرية. ويستشهد المؤلفان بقصيدة ماي أييم May Ayim التي تقول: «أريد أن أكون إفريقيا، بالرغم من ذلك،/ حتى لو رغبت ذات يوم في أن أكون ألمانيا/إضافة إلى كل هذا، سأصبح ألمانيا،/حتى لو لم يناسبكم سواد بشرتي».

والاستشهاد بهذه القصيدة، وبكتب علمية أخرى، لمارتين ر. دين، ولباحثين سابقين، دليل على تكاملية محتوى هذا الكتاب الواضحة في الأدب وفي البحث الميداني والعمل المشترك والمرجعية العلمية.

العنصرية تصنع التمييز بين الملونين والبيض، ويساهم السلوك الفردي في اتساع الشرخ بينهم. تتجلى العنصرية في أشخاص لديهم آراء مختلفة ويريدون فرض ثقافتهم على الآخرين. بالتالي يمكن لهذا الكتاب أن يرسم خارطة طريق لكل الأوروبيين وجيران سويسرا من أجل القضاء على العنصرية. يؤكد مارتن على أن اللون الأسود يشير إلى التجارب التي مرر بها، وإلى هوياته بصيغة الجمع، فهناك من يصفه بالأبيض، وآخرون يصفونه بالأسود، فهو إذن جزء من إفريقيا. لكن هي جرأة أن يتساوى مارتين مع المنحدرين من أصل أفريقي. لأنه إذا كان الحديث هنا عن الإقصاء، فإن الأفارقة بالتأكيد يلاقون معاملة مختلفة عن معاملة الهنود في أوروبا. وقد وصفت الكاتبة ميثو سانيال هذا في كتابها، حيث تقول إن النساء الهنديات في ألمانيا لديهن دائمًا لمسة روحانية، وهو ما لم تنسبه للسود. والكاتبة والصحافية الألمانية، التي ولدت في مدينة دوسلورف عام ١٩٧١، تدور موضوعات كتبها حول قضايا رئيسة كبرى كالعنصرية والهوية وصراع الهويات وثقافة ما بعد الاستعمار. ويدل عنوان روايتها الأولى «الهوية» على مضمونها، فهي تدور في القرن العشرين، في حقبة ما بعد الاستعمار، حول أستاذة «بيضاء اللون» متخصصة في الأبحاث والدراسات ما بعد الاستعمارية، تتعرض لمواقف وأسئلة تتعلق بالهوية. وتنضاف هذه الرواية إلى نضال الصحفية الثقافي والحقوقي وفي عالم الدراسات الثقافية والإنسانية. والرواية يمكن للمرء أن يتعلم منها الكثير أثناء قراءتها، خاصة وأنها تعرض للفضيحة التي تتعرض لها الأستاذة الجامعية من خلال فضح أصولها الهندية عبر مَن يتتبعون سيرتها، وهنا نستنتج أن الكاتبة تستبعد التنديد والإدانة عند عرض الآراء المختلفة التي لا يمكن التوفيق بينها.

على سبيل الختم، يهتم المؤلفان الكُتَّابَ بإعادة إنتاج العنصرية من خلال إعادة تدوير المصطلحات العنصرية، ويدعوان الكتّاب والصحفيين إلى تجنب اللغة العنصرية؛ فالكلمات العنصرية، حتى لو كانت سياسيا صحيحة، فإنها تفقد وضوحها من خلال الاستخدام المتكرر لها.

الكتاب: الصيف الذي أصبحت فيه أسود.

المؤلف: أنجليك بلندر ومارتين ر. دين.

دار النشر: أطلانتيس/كامبا، زيوريخ سويسرا، 2021.

اللغة: الألمانية.

عدد الصفحات: 192.

*** باحث في الدراسات الثقافية المُقارنة - الرباط/المغرب**

وَهْم المال: نقد السوق والركود الكبير ومستقبل السياسة النقدية

سكوت سومنر

وليد العبري *

هل من الممكن أن يكون الإجماع حول سبب الركود العظيم لعام 2008 خاطئا تماما تقريبا؟ لقد حدث ذلك من قبل. مثلما قاد ميلتون فريدمان وآنا شوارتز المجتمع الاقتصادي في الستينيات، لإعادة تقييم وجهة نظره بشأن سبب الكساد الكبير، قد يحدث نفس الشيء الآن لفهمنا للأزمة الاقتصادية الأولى في هذا القرن.

يتجاهل الاقتصاد النقدي الشهير سكوت سومنر التخلي عن التفكير المعتاد في مشاكل أسواق الإسكان والأزمات المصرفية، ويقول إن الركود العظيم جاء إلى شيء واحد: الناتج المحلي الإجمالي الاسمي، وهو مجموع كل الإنفاق الاسمي في الاقتصاد، والذي أخطأ الاحتياطي الفيدرالي في السماح به للهبوط. وَهْم المال هو حالة شاملة لهذه المدرسة الفكرية، والمعروفة باسم مادية السوق، والتي كتبها صوتها الرائد في الاقتصاد. استنادًا إلى مفاهيم الاقتصاد الكلي القياسية، يضع هذا النص الذي يسهل الوصول إليه أساسا لفهم بسيط، ولكنه جذري في الأساس لكيفية عمل السياسة النقدية بشكل أفضل: توفير بيئة مستقرة لازدهار اقتصاد السوق.

لقد مرَّ أكثر من اثني عشر عامًا منذ أن أطلق سكوت سومنر كتاب وهم المال، مدونته الشهيرة حول الاقتصاد الكلي. لم يجذب الإطلاق الكثير من الاهتمام: فقد تجاوزت جامعة بنتلي، حيث كان سومنر يقوم بالتدريس، مكانتها السابقة باعتبارها مجرد «كلية»، ولم يكن سومنر معروفا إلا لطلابه الجامعيين، وعدد قليل من زملائه الاقتصاديين. لكن المناسبة كانت بالغة الأهمية: كانت الولايات المتحدة في خضم ما كان يطلق عليه للتو «الركود العظيم». خمسة ملايين عامل فقدوا وظائفهم بالفعل، وسرعان ما سينضم إليهم مليونان آخران. لقد تقلص الناتج المحلي الإجمالي الاسمي - وهو مقياس إجمالي الإنفاق على الناتج - بنسبة ٤٪ تقريبا، في حين انخفض الناتج المحلي الإجمالي الحقيقي - وهو مقياس معدل التضخم للناتج - بنفس القدر تقريبا.

لمعرفة قصة كيف أخطأ العديد من الاقتصاديين، والناس العاديين في الركود العظيم، يجب على سومنر أن يأخذك في رحلة شاقة، لكنها مضيئة من ماضينا الاقتصادي الكلي، والدور الخفي الذي لعبته حالات عدم التطابق النقدي في فترات الركود السابقة. يتضمن كتابه تمهيدا عن ماهية المال، وكيف يفكر الاقتصاديون في التضخم. وأخيرا، إنه بيان للنقد النقدي في السوق.

على عكس المؤرخين الذين بدأوا أي تفسيرات لأمر حديث بعبارة «بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية ...»، يتخذ سومنر اتجاهاته في الكساد الكبير. لشرح حاضرنا النقدي، وإظهار كيف أخطأنا في الركود العظيم، يجب أن نبدأ من أول زلة كبرى للسياسة النقدية وأكثرها كارثية. على الرغم من وقوع هذين الحدثين الصاخبين من الناحية الاقتصادية في أوضاع مختلفة تمامًا، إلا أنهما متداخلان بدرجة كافية لدرجة أن الأخطاء التي ارتكبها الاقتصاديون في تقييم الخطأ في السياسة النقدية في عامي ٢٠٠٧ و٢٠٠٨ تشبه إلى حد بعيد ما اكتشفه البروفيسور سومنر من دراسته عن الثلاثينيات. ووفقًا للجزء النقدي من عقيدته، فإنّه يعتقد أنه من المستحيل فهم حالات الركود والأزمات المالية، إذا كان يُنظر إليها على أنها أحداث غير نقدية. إنه المال.

كتوضيح لمدى شمولية ديباجة سومنر، يأخذ منه ما يقرب من ثلثي الكتاب قبل أن يشرح بشكل صحيح ماهية السوق النقدية: «إنها تجمع بين النقد القديم لميلتون فريدمان، ونظريات التوقعات العقلانية والفعالية، وأسواق روبرت لوكاس ويوجين فاما». ثلاث أطروحات تشكل جوهر الحجة النقدية للسوق:

أولا: الصدمات التي يتعرض لها العرض والطلب على النقود تقود المجاميع الاسمية. ثانيا: تؤدي الحركات غير المتوقعة في المجاميع الاسمية إلى تقلبات في الإنتاج والبطالة فضلاً عن عدم الاستقرار المالي. ثالثا: توفر توقعات السوق لمتغيرات الاقتصاد الكلي «الطريقة المثلى لفهم ما يحدث في الاقتصاد». إن التركيز القوي على النمو المستقر للناتج المحلي الإجمالي الاسمي، والقلق الكبير بشأن ثبات الأجور وعقود الديون الاسمية يكمل القصة.

لتوضيح من أين تنشأ هذه المكونات المعقدة العديدة، ليس من المستغرب أن يصف سومنر مرحلة وضع الاقتصاد الكلي، والعديد من المعتقدات المتنافسة التي أطلقها الاقتصاديون واحتضنوها ودحضوها ثم تم التخلي عنها في القرن الماضي.

كل فصل يزرع بذرة المزيد من الأسئلة. إنه الكتاب الذي تتعلم فيه شيئا ما في كل صفحة، وغالبا ما تكون فيه عدة أشياء مذهلة. يجب على القارئ أن يحارب باستمرار الإلهاء المتمثل في تعقب مرجع لهذه النقطة أو تلك، واستكشاف أعمق الحجة التي قام سومنر بتكثيفها بخبرة. ساعات الكتاب في أقل من ٤٠٠ صفحة، ولكن موضوعه وتوجيهات الخبير سومنر تضمن ضعف ذلك على الأقل، العديد من فصوله تستحق معالجات بطول الكتاب نفسه.

تُعلِّم نقديةُ السوق، على عكس المعتقدات النقدية، أن السياسة النقدية لا تتأخر؛ فهي تؤثر على أسعار الأصول على الفور، وترتبط أسعار الأصول ارتباطا وثيقا بنتائج العالم الحقيقي، مثل الإنتاج الصناعي والتوظيف. خلافا لأولئك الذين يقلقون بشأن فاعلية السياسة النقدية بمجرد اقتراب أسعار الفائدة من الصفر، يسخر سومنر ويظهر أن السياسة النقدية تتعلق بالمال، وليس أسعار الفائدة. التحذيران اللذان يربطهما معظم الاقتصاديين بسومنر موجهان لمراقبي السوق «عدم التفكير في تغيير السعر» و«عدم قياس موقف السياسة النقدية من خلال أسعار الفائدة». لا يمكننا أن نستنتج، كما فعل الكثيرون في عام ٢٠٠٨، أن سياسة بنك الاحتياطي الفيدرالي كانت سهلة ومحفزة، لمجرد أن أسعار الفائدة المستهدفة كانت «منخفضة»، بل يجب أن نعرف ما الذي تغير أيضا. إذا انخفض المعدل الطبيعي (أو معدل التوازن) الذي

يهدف بنك الاحتياطي الفيدرالي إلى مطابقته بشكل أسرع من خفض الاحتياطي الفيدرالي لأسعار الفائدة، أصبحت السياسة النقدية في الواقع أكثر إحكاما خلال فترة الركود العظيم. فعل الاحتياطي الفيدرالي ذلك - مرة أخرى - ولكن ليس للأسباب التي قد يعتقدها الكثيرون؛ فضيق الأموال، كما يتضح من انخفاض أسعار الأصول، ليس بالمال السهل.

يرى سومنر أن دوره يتمثل في إحياء ثلاث أفكار نقدية منسية كانت، كما يقول، بمثابة عقيدة سائدة حتى عام ٢٠٠٧: تيسير السياسة النقدية ليس مرادفا لانخفاض أسعار الفائدة الاسمية، وأسعار الأصول الأخرى تنقل معلومات حول موقف السياسة النقدية، والسياسة النقدية يمكن تكون فعالة للغاية حتى عندما تكون المعدلات الاسمية عند الصفر. يسحب سومنر هذه النقاط من الكتاب المدرسي طويل الأمد، الذي وضعه عضو مجلس محافظي بنك الاحتياطي الفيدرالي فريدريك ميشكين حول الاقتصاد النقدي، ويقتبس منه على نطاق واسع لإظهار أن ميلتون فريدمان قد فهم هذه النقاط، في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين وكذلك في الثمانينيات. بشكل لا يسبر غوره، يبدو أن معظم ممتهني الاقتصاد قد نسوا هذه الأفكار النقدية الأساسية في العقدين الماضيين.

السبب الرئيسي في لغز عدم قيام بنك الاحتياطي الفيدرالي بالمزيد في عام ٢٠٠٨ هو السياسة؛ فقد يبدو الأمر سيئا إذا كانت الميزانية العمومية للاحتياطي الفيدرالي كبيرة جدا؛ وستكون النتائج سيئة إذا كان لدى الاحتياطي الفيدرالي حقوق ملكية سلبية، أو طلب إعادة الرأسمالية من الكونجرس. أظهرت جائحة كورونا أنه من الممكن تقنيا أن يفعل الاحتياطي الفيدرالي أكثر بكثير مما فعل في فترة الركود العظيم «امتلك بنك الاحتياطي الفيدرالي جميع الأدوات اللازمة لسياسة نقدية أكثر توسعية بكثير خلال الفترة ٢٠٠٨-٢٠١٣، لكنه فشل في الاستفادة الكاملة من هذه الأدوات».

بالنسبة لسومنر، لم يكن الانخفاض الحاد في الإنفاق والإنتاج مصادفة، ولم يكن ذلك حتميا. بدلا من ذلك، كانت مسألة سبب ونتيجة؛ فقد تقلص الناتج لأن الناس كانوا يشترون أقل من السابق. بالنسبة لطريقته في التفكير، كان هذا يعني أنه على الرغم من معدلات الفائدة المنخفضة القياسية، كانت السياسة النقدية شديدة الصرامة. كان السبيل الوحيد للخروج بطريقة ما هو استعادة الإنفاق مرة أخرى.

من الناحية المثالية، كما قال سومنر، كان ينبغي على

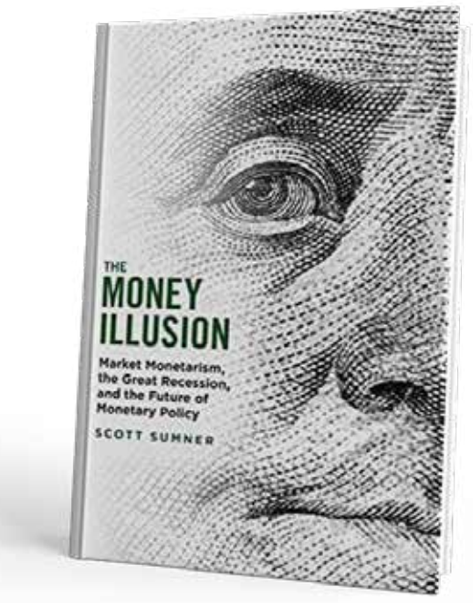

الاحتياطي الفيدرالي أن يتخذ خطوات قبل ذلك بأشهر للحفاظ على نمو الناتج المحلي الإجمالي الاسمي بمعدل ثابت، ولنقل ٤,٥٪ سنويا. كان من شأن ذلك أن يسمح بمعدل تضخم طويل الأجل بنسبة ٢٪، وهو الهدف الرسمي للاحتياطي الفيدرالي، ومتوسط معدل نمو إجمالي الناتج المحلي الحقيقي يبلغ ٢,٥٪.

يقول «لو كنتُ لا أزال أدرس الاقتصاد النقدي، فلن أتردد في تخصيصه، ليس ككتاب مدرسي، ولكن كشهادة لأحد أكثر الاقتصاديين النقديين أصالة اليوم». على الرغم من أن كتاب «وهم المال» لم يستغرق وقتا طويلاً ليصبح من أكثر مدونات الاقتصاد شهرة، إلا أنه بحلول ذلك الوقت كان الركود العظيم قد وصل بالفعل إلى الحضيض. مشاركات سومنر التي لا هوادة فيها، لا يمكن أن تلغي الماضي. لكن يمكنهم أن يلعبوا دورا في الانتعاش، إذا كان ذلك فقط عن طريق تثبيط مسؤولي الاحتياطي الفيدرالي عن رفع أسعار الفائدة مرة أخرى حتى يستعيد الإنفاق مكاسبه المفقودة.

بحلول ذلك الوقت، نمت طريقة تفكير سومنر إلى حركة أطلق عليها اسم «سوق النقد». على الرغم من أن سومنر كان هو نفسه حاصلا على درجة الدكتوراه من جامعة شيكاغو، إلا أن معظم علماء النقد في مدرسة شيكاغو كانوا، ولا يزالون، مقتنعين بأن التضخم هو أفضل مؤشر لموقف السياسة النقدية. إذا ارتفعت الأسعار بسرعة كبيرة، يجب أن تكون السياسة النقدية فضفاضة للغاية. إذا ارتفعت ببطء شديد أو سقطت، فهي ضيقة جدا.

على الرغم من أن الركود العظيم بدأ في ديسمبر ٢٠٠٧، إلا أن خبراء المواعدة حول الركود في المكتب الوطني للبحوث الاقتصادية استغرقوا عاما ليقولوا ذلك. في غضون ذلك، اتجه التضخم العام في البداية نحو الشمال، ووصل إلى نسبة هائلة بلغت ٥,٥٪ بين منتصف عام ٢٠٠٨، ومنتصف عام ٢٠٠٩. غير مدركين أن الركود كان جاريا بالفعل، أراد علماء النقد، بما في ذلك العديد من أعضاء اللجنة الفيدرالية للسوق المفتوحة، من بنك الاحتياطي الفيدرالي أن يضغط على المكابح، وليس المسرّع. إذا كان على سومنر إقناع أي شخص بفضائل مذهب السوق، فقد كان علماء النقد من «المدرسة القديمة».

في بعض النواحي، في الواقع، يشترك خبراء النقد في السوق مع الكينزيين، الذين يعتبرون «الطلب الكلي» هو المحدد الحاسم للإنتاج الحقيقي. في حين أن خبراء النقد في السوق يعتبرون أنه يكفي لزيادة الإنفاق بمعدل يتماشى مع معدل التضخم على المدى الطويل بالقرب من ٢٪، يعتقد العديد من الكينزيين أن المزيد من الإنفاق، وبالتالي ارتفاع معدل التضخم، يعني استمرار البطالة. إن كون النقد السوقي هو في الواقع نوع من التسوية بين النظرية النقدية القديمة والكينزية التي قد تفسر سبب انتشارها بهذه السرعة.

على الرغم من أن كتاب ومدونة سومنر تحملان الاسم نفسه، إلا أنهما مميزتان تماما. الكتاب ليس مجرد تجميع لإدخالات المدونة السابقة: إنه إنتاج أصلي. كما أنها لا تغطي فقط تلك الأفكار التي جعلت المدونة مشهورة، بما في ذلك وصفها الفريد لأسباب الركود العظيم. إنها تفعل أكثر من ذلك وأقل. يعد كتاب «وهم المال» أكثر من مجرد إعادة صياغة لمبادئ النقد السوقي لأنه يبحث أيضا في موضوعات متنوعة أخرى في مجال الاقتصاد النقدي، وإن كان ذلك دائما من وجهة نظر سومنر المميزة، ولأنه يتضمن وصف سومنر لرحلته الفكرية.

عنوان الكتاب: وهم المال: نقد السوق والركود الكبير ومستقبل السياسة النقدية

المؤلف: سكوت سومنر

اللغة: اللغة الإنجليزية

دار النشر: مطبعة جامعة شيكاغو

تاريخ النشر: سبتمبر 2021

عدد الصفحات: 392 صفحة

* كاتب عُماني

الحياة على الحافّة

كارل زيمر

طلال اليزيدي *

في الوقت الراهن ومع تقدم العلم والتكنولوجيا، يفترض الجميع أننا تمكنا من الوصول إلى مرحلة نفهم فيها الحياة، ولكن كلما اكتشف العلماء المزيد عن العالم الحي -من الخلايا الأولية إلى أدمغة الكائنات المعقدة، ومن خلايا البويضات الملقحة إلى الفيروسات الوبائية- واجهنا صعوبة في إيجاد حدود لتعريف الحياة. كارل زيمر Carl Zimmer في كتابه «الحياة على الحافة» يحقق في أحد أكثر الأسئلة حيرة وشهرة على الإطلاق، حاول المفكرون الإجابة عليه على مدى التاريخ: ما هي الحياة؟

في مستهل الأمر، تبدو الإجابة واضحة حتى أن تبدأ بالتفكير والإجابة عليه بجدية. يعد كتاب «الحياة على الحافة» تحقيقًا رائعاً لا يتمكن أحد من صياغته إلا واحدًا من أشهر وأمهر الكتاب العلْميين في جيلنا. كارل زيمر كاتب علْمي مميز يكتب في العديد من المجلات والصحف العالمية، نشر ما يقارب الثلاثة عشر كتابًا علمياً وحصل على العديد من الجوائز الدولية والعالمية عن مؤلفاته. الكاتب كارل زيمر يقوم برحلات عبر التجارب الغريبة التي حاولت إعادة خلق الحياة. توجد مئات المحاولات لإعادة خلق حياة بأي شكلٍ من الأشكال، ولكن لم يظهر أي من هذه المحاولات كفائزٍ واضح.

يبدأ كتاب كارل زيمر بقصة تجربة الفيزيائي جون باتلر بيرك John Butler Burke البالغ من العمر آنذاك ٣١ عامًا، والذي كان يعمل في مختبر كافنديش Cavendish Laboratory في جامعة كامبريدج. صنع باترك بيرك في خريف عام ١٩٠٤ مرقًا من قطع لحم البقر المسلوق في الماء. أضاف إلى هذا المزيج من الماء واللحم كمية من الراديوم، العنصر المتوهج بالطاقة المشعة المكتشف حديثًا حينها، ثم انتظر طوال الليل. في صباح اليوم التالي، كشط عن الحساء المشع، ولطخ طبقة على شريحة زجاجية ووضعها تحت المجهر. رأى أشواكا من مادة مُلتحمة أسماها «المشعات» Radiobes تشبه في عينيه أكثر أشكال الحياة بدائية. بيرك كان مقتنعًا بأنه قد حقق اكتشافا كبيرا. تم الإعلان عنه باعتباره تقدّمًا هائلاً في الصحف والمجلات العلمية. كتب عن اكتشافه لاحقًا: «من حق المشعات أن تُصنَّف بين الكائنات الحيَّة». في شهر ديسمبر من نفس عام التجربة ١٩٠٤، اجتمع علماء الفيزياء من كافنديش للاحتفال بإنجاز بيرك وهنأوه على اكتشافه المذهل.

سقوط بيرك من شهرة الاكتشافات والإنجاز كان سريعًا مثل صعوده. في وقت لاحق، تبين أنَّ «المشعات» ليس لها علاقة تذكر بالمواد الكيميائية الحية أو الحياة على العموم. لكن لسوء الحظ كان بيرك مقتنعًا بأنه اكتشف حياة اصطناعية وتوقع أن اكتشافه سوف يلقي الضوء على أصول الحياة. لاحقاً، تجربة بيرك (صنع الحساء، وخلطه بمادة إشعاعية، ثم إضافة الماء فقط) تحولت من اكتشاف مذهل إلى طرفة علمية سخيفة. المجتمع العلمي لاحقًا تجاهل هذه القصة تمامًا، ونجم البيولوجيا العابر باترك بيرك أصبح في نهاية المطاف من الطرائف العلمية. قصة اكتشاف بيرك أصبحت النسخة الحديثة لقصة الكيميائي في العصور الوسطى الذي كان مقتنعًا ذات مرة بأن خليطًا من السائل المنوي واللحوم المتعفنة محتضنة في حفرة دافئة، يمكن أن تشكل بشكل عفوي إنساناً صغيرا في الحجم. يبدأ زيمر كتابه الأنيق المفصل بعمق بقصة بيرك لتذكيرنا بأن الأساطير حول أصل الحياة، على مدى قرون سلفت أبهرت المفكرين وأذهلتهم، وأحيانًا أربكتهم. يتطرق الكتاب إلى الإجابة عن أصعب الأسئلة وأكثرها حيرة: ما الحياة؟ وكيف بدأت؟ وما المعايير التي يجب أن نستخدمها لتعريف شيء ما على أنه «حي»؟

على غرار الطرائف العلمية، الموضوع السائد في القسم الأول من كتاب زيمر هو تعريفات الحياة التي نشأت من عقول مفكري القرن التاسع عشر كالتمثيل الغذائي، والوعي، والتوازن، والتطور، أوصاف فيزيولوجية تتعامل بالكامل مع العمليات البيولوجية، تفسر الحياة بشرح آلية عمل الحياة. في الأربعينيات من القرن المنصرم، بدأ ظهور إحساس جديد يعرّف الحياة. غالبًا ما يُعزى هذا الإنجاز العلمي إلى كتاب صغير سجل كلمات محاضرة للفيزيائي إروين شرودنجر Erwin Schrödinger في عام ١٩٤٤. لكن جذور هذه الثورة العلمية أكثر تعقيدًا من أن تعزى إلى تلك المُلاحظات، فقد أدت الحرب العالمية الثانية والسياسة المرعبة التي صاحبتها إلى إجبار مجموعة من العلماء الفيزيائيين والكيميائيين على وجه الخصوص على الهجرة من أوروبا إلى المملكة المتحدة والأمريكيتين. الهجرة الجسدية هذه كانت مصحوبة بهجرة فكرية أيضًا؛ فالعلماء المهاجرون استكشفوا الأحياء في القارة الجديدة، وطرحوا سؤالًا جديدًا لتفسير الحياة: هل يمكننا التفكير في الحياة كمجموعة من الجزيئات والتفاعلات الخاصة؟ في عام ١٩٤٤، تحدث الفيزيائي إروين شرودنجر عن هذه الأفكار في محاضرة في دبلن، وفي النهاية صقل أفكاره في كتاب، «ما الحياة؟». في كتابه، جادل شرودنغر بأنه لمعرفة أساس الحياة يجب أن نفهم كيف يتم تشفير المعلومات البيولوجية ونقلها وإعادة إنتاجها. تنبأ شرودنغر بعمق أن معلومات الحياة يتم نقلها في جزيء بيولوجي، يمكن أن يوفر «نصًا برمجيًا» لبناء كائن حي بأكمله، هذا الجزيء بالطبع يعرف حاليًا بالحمض النووي DNA. يشير زيمر إلى أنَّ علم الأحياء الجديد لم يعد متعلقًا بوصف كيفية تكُّون الحياة، بل يتعلق بآلية عمل الحياة. كتب كريك كتابه الخاص كنوع من الإجابة على كتاب إروين شرودنجر، الذي على الرغم من انتقاده بكونه مفرطًا في تبسيط علم الأحياء، تم الإشادة به أيضًا لوضعه بيانًا جديدًا. تطرق زيمر في كتابه إلى التعريفات المشهورة في تفسير الحياة المتعلقة بآلية عمل الحياة. أحد التعريفات الواضحة للحياة، وفقًا لفرانسيس كريك -عالم حاصل على جائزه نوبل سنسرد قصته لاحقاً في هذا المقال- ينص على «أنها ظاهرة ثانوية للفيزياء والكيمياء معقدة لكنها لا تزال قابلة للتفسير من الناحية الجزيئية». في اجتماع ناسا في عام ١٩٩٢، التقط العلماء هذا التعريف الجديد للصورة الكبيرة في تعريف الحياة في جملة: «الحياة عبارة عن نظام كيميائي قائم بذاته وقادر على الخضوع للتطورات الداروينية».

زيمر في كتابه كان بارعًا بشكل خاص في سرد قصة الحمض النووي DNA. يعيدنا إلى كامبريدج، حيث التقى العالم الفيزيائي الحالم فرانسيس كريك Francis Crick البريطاني بعالم بيولوجي أمريكي مفعم بالحيوية اسمه جيمس واتسون James Watson. في عام ١٩٥١ تقابل

العالمان في جامعة كامبريدج، وكان جيمس واتسون سعيدًا بالحديث عن الحمض النووي مع كريك لساعات متتالية. فاز الثنائي بجائزة نوبل بعد أن تمكّنا من تحديد الهيكل الحلزوني المزدوج ل DNA. يلخص زيمر قصة الاكتشاف بحذر، خاصةً الدور الرائع لروزاليند فرانكلين Rosalind Franklin التي كانت تعمل بدقة على الحمض النووي وعلى وشك اكتشاف هيكله. اطلع واتسون على صور الأشعة السينية الخاصة بها التي تظهر الهيكل الأيقوني الحلزوني المزدوج للحمض النووي الـ DNA. زيمر في سرده لهذه القصة المثيرة للجدل حريص على ملاحظة أن اكتشافات روزاليند كانت مجرد بداية، وليست النهاية، لفهمنا للحياة. لسوء الحظ، لم تحصل فرانكلين على التقدير الكامل لعملها؛ لأنه بحلول الوقت الذي مُنحت فيه جائزة نوبل لفك تشفير بنية الحمض النووي، كانت قد ماتت بسبب سرطان المبيض. اكتشاف بنية الحمض النووي كانت مجرد مقدمة لفهمنا للحياة. بعد هذا الاكتشاف واصل كريك، وواتسون، وسيدني برينر، وماثيو ميسلسون، وفرانك ستال، ومارشال نيرنبرغ، من بين آخرين كثيرين من العلماء، مهمة فك شفرة كيف يؤدي «نص الكود» المكتوب في جزيء الحمض النووي إلى كيفية «حدوث» الحياة وكيف تتكاثر هذه الجزيئات الوراثية، وكيف يتم نقل هذه الجزيئات الوراثية بين الأجيال.

يُطعّم زيمر كتابَه بالقصص التي تثقف القارئ وتُبهره. أثناء سرده يتنقل جغرافيا؛ فتجده على شاطئ في لا جولا -شاطئ بولاية كاليفورنيا الأمريكية- ينظر إلى عشب البحر، وهو نوع من الطحالب اسمه kelp ذو حجم كبير، ويتساءل عما إذا كان يمكن عده من بين الأحياء. ثم ينتقل إلى المختبرات حيث العلماء يبتكرون أدمغة صغيرة محاكاة للأدمغة البشرية الحقيقية من الخلايا العصبية المتمايزة، القادرة على الانقسام والتخصص في وظائف عصبية محددة. يتساءل زيمر إذا ما كانت الأدمغة المبتكرة هذه قادرة على التفكير والحلم والإحساس؟ يعتبر زيمر أن القدرة على الإحساس هي التي تمكّن الكائن بالشعور بالحياة والعالم من حوله وفقدان كل الحواس أشبه بالموت. لكن الإحساس نفسه لا يمكن أن يكون كافياً لتفسير الحياة. زيمر يناقش أنه الآن يوجد لدينا آلات وروبوتات يمكنها محاكاة هذا النوع من الوعي والإحساس، حتى لو لم يتواجد هذا «الإحساس» في الكائن حي. فعلى الصعيد البشري مثلاً، الآلات تمكّن فاقدي السمع من السماع مجدداً، وتمكّن فاقدي الأطراف من التحكم بأطراف صناعية مربوطة بجهازهم العصبي.

يناقش زيمر أننا ربما نطرح السؤال الخطأ بتعريف

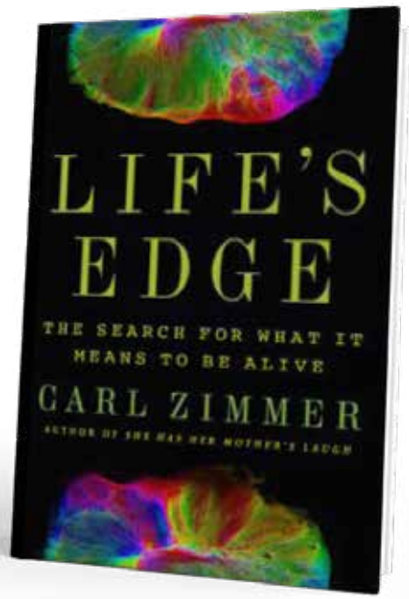

الحياة، ويتساءل: ما تفسير الحياة في مقاومة الموت؟ إحدى علامات مقاومة الموت هي التمثيل الغذائي. التمثيل الغذائي «الأيض» هو تحويل المادة إلى أشكال جزيئية للطاقة، وتحويل الطاقة الجزيئية لتغذية النمو. التمثيل الغذائي أمر بالغ الأهمية لجميع الكائنات الحية للنمو والازدهار. يسرد زيمر بعض الحقائق عن ثعابين البايثون المخبرية التي تظل في حالة استقلابية قليلة -نشاط التمثيل الغذائي يقل بشكل ملحوظ- حتى يتم إطعامها، ثم تكثف النشاط في أنسجتها، وهذا التغيير من حالة الراحة إلى حالة ما بعد الأكل عند البايثون ليس له مثيل في عالم الفقاريات. ينتقل زيمر إلى أعماق كهف من الخفافيش ليكتشف سمة أخرى من مميزات الحياة في التوازن والحفاظ على الثبات. يناقش الخفافيش صغيرة الحجم التي تزن بقدر ما يزن ظرفًا فارغًا. تدخل الخفافيش حالة من السبات خلال فصل الشتاء، بالاختباء في الصخر وتستخدم التوازن الحراري الخاص بالكهف لدعم توازنها الحراري، ويحتفظ الكهف بدرجة حرارة متساوية نسبيًا بسبب قلة التبادل الجوي مع العالم الخارجي، فتبقى صخور الكهف دافئة نسبياً، مثلها مثل الخفافيش. عندما يحين الربيع، وتضطر الخفافيش إلى الطيران، فإنها تتوازن مع هبوب الرياح لتوفير طاقة الطيران وتحافظ على مكانها في الجو. يذكر الكاتب قصة زيارته لمختبرات العلماء الذين يخزنون أبواغ فطريات العفن لتجارب مستقبلية. هذه الأبواغ ميتة بكل المعايير، فنشاط الاستقلاب منعدم وكذلك الإحساس، لكن مع إضافة القليل من الماء إلى هذه الأبواغ تدب فيها الحياة من جديد، فتنمو الأبواغ إلى فطريات العفن وبمجرد أن تكون هذه الفطريات على قيد الحياة، يمكنها أن تخترق متاهات وتصل إلى تحت الصخور وتجد مصادر للسكر والماء.

في القسم الأخير من الكتاب، يتحول زيمر إلى الفيروسات. في إشارة إلى فايروس كورونا المستجد كتب: «قطعة من الحمض النووي الريبي، معبأة داخل غلاف جزيئي، استولت على الكرة الأرضية وتسببت في جائحة، وقلبت العالم رأسًا على عقب». تحليله لعلم الفيروسات موجز ولكنه يسمح بالتعقيد، فهو يعترف بالجدل في علم الفيروسات، و يعطي القارئ لمحة داخلية عن كيفية تعلم العلماء التفكير في مجال الميكروبات التي ليست على قيد الحياة، ولكن يمكنها التطفل على بيولوجيا الكائنات الحية.

ينتهي الكتاب من حيث بدأ بالبحث عن أصل الحياة. ينهي زيمر كتابه بسرد قصة في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي عن تجربة أجراها ستانلي ميللر Stanley Miller وهارولد أوري Harold Urey، وهذه التجربة مماثلة لتجربة باترك بيرك التي تطرقنا لها في بداية المقال عن «المشعات». في هذه التجربة قام العالمان بتشكيل حساء بدائي آخر بمزيج الماء والميثان والأمونيا والهيدروجين في زجاجة مغلقة، ثم أطلقا على المزيج شرارات كهربائية وامضة لمُحاكاة البرق. لم يلاحظا «مُشعّات» باترك بيرك الوهمية تزحف خارج أنبوب الاختبار طبعاً، لكن ميلر وأوري وجدا مواد كيميائية تكونت من ذلك المزيج بعد إطلاق شرارات كهربائية عليه بما في ذلك بعض الأحماض الأمينية، التي قد تشكل الأساس الجزيئي للكائنات الحية.

زيمر كاتب ذكي وجذاب يقوم بإدخال الحكاية ويرسم قصصا علمية ويجلب التجارب المعملية إلى الحياة. هذا الكتاب ليس فقط عن الحياة، ولكن عن الاكتشاف نفسه. محاور الكتاب تدور حول الاكتشافات والأخطاء والغطرسة في تفسير الحياة. قصص الكتاب محفوفة بالدهشة وتبين مدى ومحدودية العلم في الإجابة عن أبسط الأسئلة وأعمقها: ما الحياة؟

الكتاب: الحياة على الحافّة، البحث عن ماذا يعني أن تكون حياً

الكاتب: كارل زيمر Carl Zimmer

عام النشر: 2021

دار النشر: Dutton Books

اللغة : الإنجليزية

عدد الصفحات: 368

* كاتب عُماني

البعوض: مكان الآفات في عالم صحي

ماركوس هول ودان تامور

محمد بن علي الإسماعيلي *

ثمة تبعيات عديدة تربط بين صحة الإنسان والأنظمة الطبيعية التي يعيش فيها، تبرز في كثيرٍ من الدراسات البيئية والنفسية والاجتماعية والفلسفية؛ لإيجاد توازنٍ نحو توطين طرق أفضل للعيش في هذا العالم الطبيعي.

وتبرز في هذا السياق إحدى الدراسات الحديثة التي تُناقش مستقبل التعايش المنسجم بين الإنسان والبعوضة، التي تعد أكثر الحيوانات فتكاً بالبشرية على مرّ السنين؛ لما تسببه من أمراض خطيرة، مثل: نقل الملاريا والحمى الصفراء وزيكا، في وفاة مليون شخص كل عام تقريباً، إلّا أن علماء الطبيعة وعلماء الاجتماع وعلماء الإنسانية أكدوا أن بضع عشرات فقط من البعوض من بين ٣٥٠٠ نوع تشكل خطرا على النوع البشري. إن كتاب (البعوض: مكان الآفات في عالم صحي) لمؤلفيه ماركوس هول، وهو مؤرخ بيئي وأستاذ في جامعة زيورخ السويسرية، وباحث في استكشاف العلاقات الإنسانية المتغيرة مع العالم الطبيعي، ودان تامور، وهو مؤرخ بيئي وباحث مشارك في جامعة زيورخ، ومتخصص في دراسات الدوران العالمي والتكيفات المحلية للأيديولوجيات والأنواع والموارد، بالإضافة إلى تعاونه في المجال السياسي العالمي لاستهداف الأمراض التي ينقلها البعوض في القرن الماضي. يطرح الكتاب عددا من التساؤلات فيما إذا كانت هناك للبشر والبعوض سبلٌ لتعلم العيش بسلام مع بعضهم، أو السيطرة على البعوض والقضاء عليه بقتله، مع توضيح العواقب المحتملة لكلا التوجهين الموضوعين؛ وعرض رؤى جديدة مستنيرة للخبراء الرائدين في مجالات الصحة والبيئة وحقوق الحيوان.

يُصنف كتاب (البعوض: مكان الآفات في عالم صحي) الصادر عن دار النشر البريطانية متعددة الجنسيات «روتليدج» أحدث أعمالها في العام الجاري ٢٠٢٢م في مجال النشر الأكاديمي. وقد قاد الانتشار الكبير لمرض الحمى الصفراء، حتى مع تراجع أعداد المصابين بالملاريا، رغم أن أكثر من نصف سكان العالم لا يزالون معرضين لهذه الأمراض وغيرها من الأمراض الخطيرة التي ينقلها البعوض، التي تشمل أيضًا حمى الضنك وغرب النيل والشيكونغونيا وزيكا، قاد المؤلفين ومجموعةً من العلماء المتعاونين في علوم البيئة والحشرات، إلى البحث في كيفية القضاء على المعاناة والألم القابع في حاضر البشرية ومستقبلها؛ وذلك بسبب ما ينقله البعوض، أو السيطرة عليه على أقل تقدير. كما يشير المؤلفان إلى احتمالية تطوير علاقة صحية مع هذه الحشرة، تسمح بخلق حالة وئام مع الإنسان؛ وذلك لعدد من الأسباب، أبرزها أننا نحارب الأمراض وليس البعوض؛ لذا توجد هنالك استراتيجيات أخلاقية أكثر فاعلية من إبادة هذا الكائن الصغير، مثل: تطوير الأدوية واللقاحات من طريق التخصصات والأبحاث الموسّعة، والسيطرة على البيئة من طريق المحافظة على نظافتها وديمومة مواردها الحيّة، وتطبيق المبدأ الوقائي على نطاق أوسع وأشمل بين مختلف درجات المجتمعات؛ لذا نادت العلوم الإنسانية البيئية إلى فحص مشروع مكافحة البعوض من زوايا وأبعاد عدة؛ فيما إذا كان ممكنًا تقنيًا ومتوافقًا بيئيًا ومعقولًا أخلاقياً الشروع في حملات إبادة هذه الحشرة.

وتُعد أنماط السلوك التي يُظهرها البعوض مُعقدة ومدفوعة بأنظمة حسيَّة تتكيف مع البيئات التي يسكنها والمنافذ البيئية التي يستغلها؛ وذلك وفقاً لما جاء في دراسة بحثية قدمها عالم الأحياء الهولندي نيكولاس تينبرغن عام ١٩٦٣م، مشيرا إلى أنَّ دورة حياة البعوضة، وعلم التشريح، وعلم وظائف الأعضاء والسلوك، تجعل هذا المخلوق الفريد موضوعًا استثنائيًا للدراسة، حاسمة في ذات الوقت للثقافة البشرية على مختلف المستويات. وقد استعان المؤلفان بمجموعة كبيرة من الأبحاث لفهم آلية انتشار الأمراض التي ينقلها البعوض، وتوجيه تطوير أساليب مكافحة البعوض وتلك الأمراض. وخرج الباحثان إلى أن إحدى النتائج الرائعة لتلك المجموعة البحثية هي الكشف عن بيولوجيا معقدة تظهر سمات سلوكية وتشريحية وفسيولوجية للبعوض. ويُشير الكتاب إلى بعض الجوانب الأقل شيوعًا في بيولوجيا البعوض التي تُظهر بالفعل تفاعلات حيوية أكثر تعقيدًا من تلك الخاصة بآفات بسيطة تمتص الدم وتنقل المرض. رغم أنَّ الدراسات بدأت حديثاً في الكشف عن بعض سلوكياتها الأكثر غموضًا، لا يزال هناك الكثير من العمل الذي يتعين القيام به، فقد طوّرت آلاف الأنواع من البعوض تكيفات بيولوجية رائعة ومعقدة لتوليد سمات سلوكية وبيئية متنوعة لا تزال غير معروفة في أروقة العلم. وتعد أنشطة البعوض في النظام البيئي متطورة ومتخصصة، وهي في الواقع أكثر تعقيدًا من بين العديد من الكائنات الأخرى. وقد تكشف دراسة بيولوجيا البعوض عن أسرار كيميائية حيوية وتشريحية وسلوكية قد لا تثري فهمنا للطبيعة فحسب، بل تُصبح أيضًا مصدرًا للإلهام الحيوي في العلوم والتقنيات المستقبلية، أبرزها قد يكمن في تصميم إبر مجهرية خالية من الألم.

ركّز الكثير من الدراسات على الأمراض التي ينقلها البعوض؛ عندما كانت مسألة بقاء الإنسان على قيد الحياة والانقراض غير البشري بارزة لعقود عديدة، والعلاقات بين الإنسان والبعوض خاصة في غرب القارة الإفريقية، وكشفت دراسات مرجعية أخرى في الوقت نفسه عن الحركة النشطة التي امتاز بها البعوض في ظل توسع العولمة والمناخ الدافئ. وأشارت الدراسات إلى أن العديد من تدخلات مكافحة البعوض في الماضي ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بسياسات التوسع الإمبريالي والاستعماري؛ لذا سعى الباحثون إلى اكتشاف أكثر الأساليب ملاءمة لفهم ارتباط حركات الإنسان والبعوض معاً، فقد أظهرت الحقائق المرونة والقدرة الهائلة للبعوض في التكيّف مع الظروف الجغرافية والمناخية المختلفة والاستفادة من البيئات والبنى التحتية التي يصنعها الإنسان؛ مما أدى إلى انتشاره الواسع، الذي بدوره دفع المتخصصين لتكثيف التعاون المنهجي الوثيق متعدد التخصصات بين علماء الحشرات وعلماء الاجتماع والتقنيين والمجتمعات نفسها، سعيا للجمع بين خيوط البحث في كيفية تنقّل الإنسان والناقل والفيروس في آنٍ واحد.

ثمة مخاوف بيولوجية ضارة أثارها مراقبو البيئة بصدد تحديث أدوات جديدة لمكافحة البعوض في السنوات الأخيرة، مثل إطلاق البعوض «العقيم» أو «المعدّل وراثيًا»؛ لمنع انتقال المرض؛ إلا أن هذه الأساليب أثارت جدلا واسعا مسّ قضايا أخلاقيات البيئة، محفوفا بالمخاطر والعواقب على نطاق إقليمي وعالمي؛ لذا كان السعي لاستهداف تقليل أعداد ناقلات الأمراض هذه بدلاً من القضاء عليها. كما كان للحركة البيئية رأي آخر تجاه تدمير الطبيعة واستطلاح الأراضي الرطبة؛ لذلك سعى علماء البيئة إلى حظر المبيدات الحشرية الاصطناعية الكيميائية حتى لمكافحة الأمراض؛ باعتبارها ملوثات عضوية ضارة بالبيئة على المدى البعيد.

وقد سجّل مراقبو البيئة عددا من أنواع البعوض التي تفضّل البيئات المعدلة من قبل الإنسان، تتراوح بدءا من المستوطنات الزراعية الصغيرة مرورا بالمدن الكبرى

الحضرية. وعلى الأرجح ستعمل المجتمعات البشرية على جذب البعوض بمجرد وجودها؛ تحديدا في البيئات المبنية والأراضي الرطبة، وقد سمحت تأثيرات: العولمة والتنمية الحضرية والنمو السكاني البشري وتغير المناخ؛ بتوسّع الحدود البيئية للبعوض لتندمج مع المجتمعات البشرية؛ إذ شهد النصف الثاني من القرن العشرين نموا كبيرا في أعداد البعوض عبر حيّز جغرافي واسع النطاق. وقد يصبح أمر التعامل أو التعايش مع البعوض واقعاً لا بديل عنه؛ بل سيكون واقع التعامل مع مكافحته محتاجاً إلى نهج أكثر حذراً؛ طالما استمر البشر في تغيير الأراضي البرية واستصلاح الغابات؛ بل إن التغييرات في التخطيط الحضري وإدارة الأراضي الريفية قد تكون أفضل طريقة لتقليل هذه الحشرات الحاملة للأمراض مع مرور الوقت.

لماذا كان من الصعب إعادة تشكيل الصحة العامة في مكافحة ناقلات الأمراض باستعمال الأساليب البيئية والبيولوجية والاجتماعية المناسبة؟ تبرز العناية بطرق العيش الاجتماعي، مثل: تركيب أنابيب المياه، والنوافذ وفتحات التهوية المغطاة، وضمان جمع القمامة بانتظام؛ طرقا حيوية فاعلة لدرء البعوض وأمراضه التي ينقلها؛ لذا كانت دعوات تحسين الإسكان والظروف الاجتماعية والاقتصادية أولوية قصوى للسيطرة على تلك الأمراض. فيما كان لدولة البرازيل المنتمية لقارة أمريكا الجنوبية، تجربة بارزة في هذا المجال، فقد أرسلت نحو ٢٢٠ ألف جندي إلى الأحياء البرازيلية للتعامل مع زيكا؛ بيد أنه عُدّ لاحقاً تمرينًا في العلاقات العامة أكثر من كونه مشروعًا مدروسًا للصحة العامة؛ فحكم على أن أسلوب تلك الحملة المكافحة لناقلات أمراض البعوض في المجتمع بأنها غير ناجحة بشكل عام؛ لذا يستوجب إعادة تشكيل استراتيجيات حديثة تعمل على مكافحة البعوض في البرازيل.

تدور الفكرة العامة المهمة في هذا الطرح الذي يقدمه الكتاب على المنظور الأخلاقي البيئي الذي قد يحدد آلية تقليل العبء الصحي للأمراض التي ينقلها البعوض؛ سواء أكان باستئصاله أم الحد من انتشاره بطرق متعددة؛ وذلك حتى لو كانت لدينا أسباب جيدة جدًا للدفاع عن صحتنا وحمايتها من الأوبئة والأمراض على مختلف المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والبيئية. وإن تمكنّا من تحصيل مطالب أخلاقية مقنعة ترى أننا بحاجة إلى القضاء على أنواع معينة من البعوض بأفضل ما لدينا من قدرات للحفاظ على الصحة العامة، إلا أنَّ القيام بذلك يتطلب إدراكًا بأن شيئًا ذا قيمة أخلاقية سيضيع، وهو خسارة نوع من أنواع الحشرات، في الجانب المقابل نجد أن نظرية أخلاقيات البيئية ترفض مثل هذه الخسارة؛ سعياً منها إلى تحقيق التوازن البيئي.

وقد حاولت البشرية السيطرة على نواقل مسببات الأمراض في البيئة الطبيعية؛ للوصول إلى نقطة تمكّن الناس والبعوض معاً من تحقيق توازن مستدام ومقبول يحافظ في نفس الوقت على صحة الإنسان ويحمي البيئة،

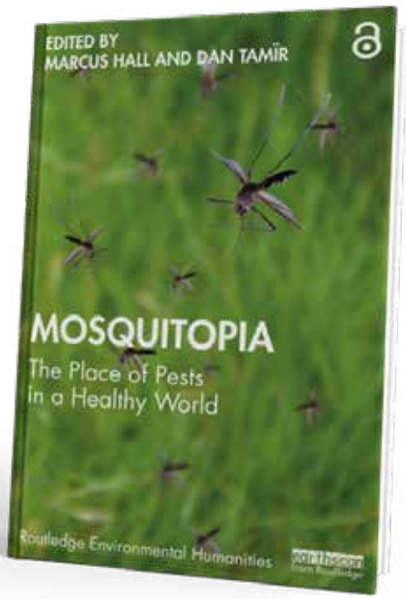

مع توصيات علمية حثيثة بأهمية تعلّم المجتمعات الكيفية الصحيحة التي يتكيفون فيها مع عاداتهم وبيئاتهم الحضرية لتقليل تعرضهم للبعوض المسبب للأمراض الخطيرة؛ إذ قامت دعوات ذات مناهج هادفة للحد من انتقال أمراض البعوض في المناطق الحضرية لعقود من الزمن، ولكن جاء تطبيقها بشكل غير متساوٍ بسبب تكاليفها العالية، والقدرة البشرية المحدودة، واللامبالاة المجتمعية، وضعف الإرادة السياسية اللازمة للحفاظ على هذه الجهود في فترات انتشار الوباء.

في الجانب المُقابل، تلعب السياسات التقنية المتنافسة في استبدال محركات الجينات الوراثية دورًا في محاولة القضاء على ناقلات الحشرات أو إعادة تشكيلها؛ إلّا أنها -رغم بحثها عن طرق مغايرة للعيش مع البعوض- تمثّل توجهات سياسية وأخلاقية مختلفة للتحديات التي تطرحها نواقل البعوض، فقد تختلف في آثارها السياسية والاجتماعية والبيئية والصحية المستقبلية، وتهدد الدوافع الجينية من جميع النطاقات بتمزيق التوازن البيئي للبعوض في الطبيعة. كما أن إجراء البحث والتطوير على البعوض المعدل جينيا/وراثيًا من قبل مختبرات الشمال العالمي؛ أي في الولايات المتحدة الأمريكية وبعض دول أوروبا، بعيد جدًا عن مواقع إطلاقها المزمع في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية التي تعاني من ناقلات أمراض البعوض؛ مما يُمثّل إزعاجاً حقيقياً لكيفية توزيع سلطة اتخاذ القرار سياسيا واقتصاديا واجتماعياً وتعليمياً.

ويختم المؤلفان الفصل الأخير من كتاب (البعوض: مكان الآفات في عالم صحي)، بالإشارة إلى أنَّ الأمراض التي ينقلها البعوض تمثل تهديدًا رئيسًا للصحة العامة لحالة الطوارئ العالمية القادمة؛ لذا تتطلب أقصى قدر من الاهتمام. وفي الوقت نفسه، أصبح الحفاظ على التنوع البيولوجي تحديًا اجتماعيًا وبيئيًا كبيرًا يتطلب اتخاذ إجراءات فورية، مع واحدة من أكثر الخطوات إلحاحًا تتمثل في الهروب من عصر المبيدات الحشرية لحماية طعامنا وصحتنا وبيئتنا. وضع المؤلفان عددا من الإجراءات الوقائية المهمة، هي: (١) عند التعامل مع البعوض الناقل للأمراض البشرية الرئيسة، يتعامل المرء مع جزء صغير جدًا من التنوع البيولوجي الكلي للبعوض ويعتمد على سمات بيئية محددة جدًا. (٢) يرتبط هذا التجمع المحدد بأنواع البعوض ارتباطًا وثيقًا بالبشر ويعتمد عليهم؛ لذلك علينا الآن أن نتعلم كيف نستفيد من هذا الارتباط الوثيق، فلم يعد القضاء على البعوض نتيجة متوقعة أو حتى نتيجة مرغوبة، بدلاً من ذلك، فإنّ الاعتراف به جزء لا يتجزأ من بيئتنا المباشرة يدفعنا إلى التزامنا طويل الأمد بحسن إدارة الأزمة، التي تحتاج إلى برامج عصرية لمكافحة النواقل؛ كي تتحول إلى استراتيجيات لإدارة البعوض لتحقيق الاستدامة في التخفيف من مخاطر الأمراض مع المساعدة في الحفاظ على التنوع البيولوجي وتحسين أداء النظام البيئي محليًا وإقليميًا وعالميًا.

نستطيع أن نلخص هذا الموضوع فيما لو نظرنا إلى هذا الكتاب على أنه يقدم فرضيةً فيما إذا كان من الممكن تخيّل عالم خالٍ من البعوض ... بكل تأكيد يستحيل ذلك؛ إذ إن الاستراتيجية المتبعة للقضاء على البعوض من كوكب الأرض لن تحقق مآربها؛ فعلى حد وصف أستاذ الصحة العامة الأستاذ الدكتور أندرو سيبلمان، فإن البعوض أذكى من البشر، وسيبقى على قيد الحياة لسنوات قادمة، وهو يتكيّف جيدًا مع هذه الحالة العابرة وغير المستقرة؛ لذا سوف يزدهر البعوض في هذا النظام البيئي كما فعل لملايين السنين. وفي ذات الإطار، لا نجد اختلافا في كيفية التعامل مع البعوض عن كيفية معالجتنا للنزاعات الأخرى بين الإنسان والحياة الطبيعية؛ وبافتراض ذلك يمكن للمرء أن يتخيل أن البعوض جزء لا يتجزأ من هذه الحياة؛ إذ يؤيد الكتاب نظرية تعلّم العيش مع الآفات والأعداء في عالم طبيعي واسع ومتباين؛ وذلك بعيدا عن الأفكار التي اتجهت نحو إنفاق موارد عالية الثمن لتسخير التكنولوجيا والتقنيات للقضاء على البعوض تعزيزا للنظام الصحي العالمي.

عنوان الكتاب: (البعوض: مكان الآفات في عالم صحي).

المؤلفان: ماركوس هول ودان تامور.

اللغة: الإنجليزية.

عدد الصفحات: 290.

سنة النشر: 2022م.

دار النشر: روتليدج.

* محرر وباحث عماني

وضع الشرق الأوسط واستراتيجيته

جيبين هان، وواي لي

لينج لي وانج *

جيبين هان، عميد معهد دراسات الشرق الأوسط التابع لجامعة شيباي بالصين، ومشرف الدكتوراه، ونائل لقب «الكفء الرائد» الشريف في مجال العلوم الفلسفية والاجتماعية لـ «خطة عشرة آلاف نخبة»، ولقب «عالم نهر يانغتسي الشاب» من قبل وزارة التربية والتعليم الصينية. مجال بحثه تاريخ الشرق الأوسط، وقضايا الدول الاشتراكية العربية، ودول الخليج، وقبائل الشرق الأوسط، نشرت له عشرات المؤلفات والأبحاث في المجلات العلمية مثل «دراسات التاريخ» و«تاريخ العالم» إلخ .

أما واي لي، فهو أستاذ مساعد بمعهد دراسات الشرق الأوسط التابع لجامعة شيباي بالصين، وأستاذ الفلسفة في العلاقات الدولية بجامعة كيانج هيي في كوريا الجنوبية. مجال بحثه نظرية العلاقات الدولية، وأمن الشرق الأوسط، وكفاح الإرهاب، وقضايا إسرائيل. نشر له كتاب «إسرائيل والحزام والطريق: الدور والمستقبل» وعدة أبحاث وتقارير أكاديمية.

عُرض في الكتاب الأوضاع الحاضرة في إحدى وعشرين دولة واقعة في منطقة الشرق الأوسط على نحو شامل ومرتّب، وفيه دراسات عميقة وتوقعات وأحكام لتطور الأوضاع والخلفيات والأسباب والاتجاهات المستقبلية، كما طرحت فيه رؤى ووجهات نظر جديدة ذات قيمة مرجعية في دراسة قضايا الشرق الأوسط.

يضمّ الكتاب أربعة أجزاء كل جزء يخصّ إقليما، فالأول عن دول شمال إفريقيا بما فيها مصر والجزائر وليبيا والمغرب وتونس، والثاني عن دول البحر الأبيض المتوسط مثل إسرائيل وتركيا والأردنّ وفلسطين وقبرص، والثالث عن دول الهلال الخصيب تضمّ إيران والعراق وسوريا ولبنان وقطر، والرابع عن دول الخليج يتناول السعودية والكويت وعُمان واليمن والإمارات والبحرين. بدأ الجزء الأول بمصر، في سياق ما تعرضت له الدول العربية من توتر منذ عام ٢٠١١ ومنه تورط سوريا وليبيا واليمن في الحروب الداخلية المتتالية. جاءت مصر في مقدّمة الفئة التي تعمل على التماس نمط إدارة سياسية لائقة جراء سلسلة من التقلبات المفروضة على هذه المنطقة، فنجحت في تفادي تهديدات الإرهاب وتحقيق الاستقرار السياسي وهي تحاول الآن حل المشاكل التي ظلّت تعيق التنمية الاقتصادية في مصر منذ عقود. أُجري في مصر استفتاء على تعديلات دستورية في الفترة من ٢٠ إلى ٢٢ أبريل عام ٢٠١٩ وصوّتت نسبة ٨٨,٨٣٪ بالموافقة عليها حسب أنباء مجلس الانتخاب المصري، ومن الظاهر أن هذا الإجراء جزء من الجهود المبذولة من نظام السيسي من أجل إعادة بناء نفوذ الحكومة وهيبتها وتمركز سلطتها. حين عاد إلى يد الجيش زمام الحكم على نظام السياسي في الحياة السياسية المصرية، بدأ جهاز الأمن يلعب فيها دورا مهمّا أيضًا. ورغم ذلك ظلّ التنازع في النفوذ بين الرئيس والقوة العسكرية مستمرا، وبصدده انتهج الرئيس السيسي سياسة الكرسي الدوّار في السنتين الأخيرتين لعزل قادة القوة العسكرية عن المناصب العليا تخفيفا للتهديدات السياسية. ومن جانب إحياء الاقتصاد أدخل بنك مصر المركزي معيار الفائدة العديمة الخطر في أبريل عام ٢٠١٨، وفي حينه دفعت الحكومة خطة رفع رأس المال المطلوب إلى حدّ كبير وطرحت إجراءات جديدة لحماية المجتمع بما فيها خطة « تكافل وكرامة» وبرامج « الفرص» و«سكن كريم» ونظام ضمان العلاج الطبي الجديد، واعتمد البرلمان المصري في يوليو عام ٢٠١٩ تعديلات قانون التمويل هدفا إلى جذب مزيد من الرأسمال إلى المقاطعات الأعجز اقتصادا ورفع مستوى معيشة المواطنين وتنويع مصادر التنمية الاقتصادية في أرجاء البلاد، إضافة إلى إطلاق إجراءات جديدة لتأييد الشركات الصغيرة والمتوسطة الحجم. ومن جانب كسب الأمن بالتنمية، فقد عزّزت الحكومة السيطرة على الحدود الشرقية وحدّدت في استراتيجية عام ٢٠٣٠ هيكلا عاما للأهداف المشهودة التي ستحقّقها شتى المقاطعات، ومن هذه الأهداف توزيع السكّان جغرافيا بما يدفع انتقالهم إلى المقاطعات ذات الاستراتيجية مثل جزيرة سيناء والصحراء الغربية وجنوب البلاد. ومن جانب الدبلوماسية، شهدت مصر مستجدّات مستمرّة في سياساتها الخارجية ترمي إلى مواجهة التهديدات الأكثر خطورة على أمن البلاد مثل بناء سد النهضة في أثيوبيا وقضايا ليبيا، وبصددها بدأت مصر تعمل على تعزيز التعاون مع أشقائها الأفارقة في شتى المجالات وأظهرت مبادرة أقوى من ذي قبل في لعب دور إيجابي في آليات الحملات المشتركة في إفريقيا.

ويولي الجزء الثاني الاهتمام إلى إسرائيل، مع أنها دولة على ساحل البحر الأبيض المتوسط بسكّان ثمانية ملايين نسمة فقط، وأوضاعها السياسية معقّدة متقلّبة داخلا وخارجا. فيها أحزاب مختلفة الأفكار السياسية مُمثّلةً مختلف الجمعيات الاجتماعية والقوميات والطوائف، ما يدعو إلى تكوين اتحادات سياسية بين بعضها دون البعض لكي تفوز في معركة الانتخاب البرلماني وتمسك زمام الحكم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن عناصر المجتمع الإسرائيلي معقّدة مع أن أكثر سكانها يهود، فبين جميع سكانها مليون ونصف من الفلسطينيين الذين يحملون جنسية إسرائيل، وبين اليهود طوائف مختلفة الجنسية منها طائفة أوروبا الشرقية والوسطى، وطائفة أمريكا اللاتنية، وطائفة العرب، وطائفة إفريقيا وغيرها، وهؤلاء اليهود ينقسمون أيدولوجيا إلى «اليسار» و«اليمين» أو إلى «العلماني» و«الإصلاحي» و«الأرثوذكسي»، وقد أدّت هذه الاختلافات قوميا وعرقيا وفكريا إلى التفاوت الشبكي بين فئات المجتمع ثم إلى نوع من التفتت في تشكيل الأحزاب السياسية. شهدت إسرائيل أشدّ التقلبات السياسية في غضون عام ٢٠١٩ حيث أجري فيها انتخابان ولم يتحقق تشكيل حكومة إثرهما، وفشل الانتخاب ألحق الشعب باليأس والرأي العام والوسائط الإعلامية بالتردد في اتهام السلك السياسي بالأنانية الذي يرى أن الانتخاب يكلّف تكلفة باهظة تعجز الدولة عن تحملها مرة بعد مرة، وأظهرت هذه التزعزعات ميزات جديدة فيما بين القوات السياسية داخل إسرائيل. أولا إن مجموعة الليكود وما تمثّله من القوة اليمينية هي حزب رئاسي في إسرائيل. ثانيا ظل المذهب الأرثوذكسي

المتطرف يحيز قوة كبيرة. ثالثا إن تفاقم الخلاف بين الحزبين اليسار والوسط أسفر عن تفككهما وضعفهما. وفيما يخصّ دبلوماسية إسرائيل، فهي تمارسها من خلال أبعاد العلاقات مع أمريكا وفلسطين والدول العربية وإيران. في البعد الأول، تحاول إسرائيل أن تحافظ على العلاقة الصديقة مع أمريكا بغية أن ترفع مكانتها الاستراتيجية في منطقة الشرق الأوسط بالانتفاع من العلاقة مع أسرة ترامب. وفي البعد الثاني، تتمنى إسرائيل أن تدفع عملية السلام مع الفلسطينيين إلى التقدم في غضون مدة تولية ترامب لمنصبه، وأن تشرّع ما احتلّته من أراضي الضفة الغربية والقدس الشرقية بفضل تحيّز أمريكا لها. وفي البعد الثالث، تعمل إسرائيل على حفاظ الاتصالات الوثيقة مع الدول العربية الخليجية لتحقيق وثبة حاسمة في العلاقة الثنائية بينهما. وفي البعد الرابع، تثابر إسرائيل على سياسة الحذر من إيران ومعاداتها الإقليمية باعتبارها « أكبر تهديد على الأمن.

ثم تأتي إيران كدولة أولى في الجزء الثالث، وهي جمهورية ثيوقراطية مزدوجة بفكر الشيعة الإسلامية وفكر الجمهورية الحديثة حيث يتمتع الزعيم الديني بأعلى السلطات ويجرى الانتخاب الديمقراطي فيها في إطار النظام الإسلامي. لقد توسع الخلاف بين الاتجاهين لهيكل إيران السياسي المزدوج في غضون عام ٢٠١٩ وذلك يتمثل في الجهات الثلاث: الأولى انفجار احتجاج شامل في البلاد. في يوم ١٥ من نوفمبر عام ٢٠١٩ أعلنت حكومة إيران على صورة مفاجئة رفع سعر البترول بنسبة ٢٠٪ ورفع سعر الكمية المجاوزة للحصّة المحدّدة له إلى ما يساوي ثلاثة أضعاف من سعره الأصلي، ويضاف إليه الحالة الاقتصادية السيئة التي لم تتحسن منذ مدة طويلة؛ ما أدى إلى انفجار احتجاج شامل في أرجاء البلاد أثّر على أكثر من مائة مدينة وأسفر عن مقتل مئات الأشخاص، الأمر الذي يظهر أن عامة الشعب الإيراني تمكن من الاتحاد ضدّ الحكومة في قرار ما صادر عنها حين تقع البلاد في مأزق اقتصادي، لذلك على حكومة إيران أن تتجنّب وضع أي قرار متسرّع يتناول الدستور في المستقبل القريب وقاية من إثارة غضب الشعب العام وإحداث زعزعة المجتمع. والثاني عودة السلطة إلى القوة المحافظة. فبعد انسحاب أمريكا من الاتفاقية النووية مع إيران أصيب المذهب الإصلاحي المعتدل الممثّل بالرئيس روحاني بالإحباط والإعراض، وأتاح للمذهب المحافظ حجة لطعن روحاني وإدانة نظامه بالضعف والعجز وإهانة دبلوماسيته المقاربة للغرب، فتسير كل المستجدّات والمتغيرات منذ عام ٢٠١٩ لصالح المذهب المحافظ ويبدو أن ميزان السياسة الداخلية قبل الانتخاب يميل إليه كذلك تدريجيا، ومن

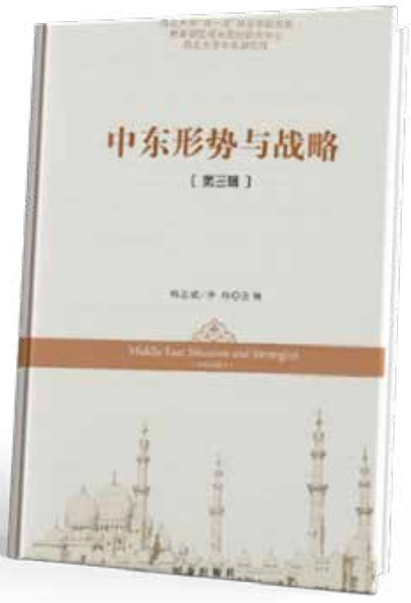

المأمول أن يفوز هذا المذهب في انتخاب الرئيس ثم يسيطر على أجهزة القانون والقضاء والإدارة الثلاث الكبرى. والثالثة تصاعد الصراع بين إيران وأمريكا. ومن الراجح أن هذه الحالة ستستمرّ؛ فالعقوبات المفروضة على إيران من قبل ترامب أعجزتها اقتصاديا وأوقعتها في مأزق في المجتمع الدولي. تبعا ذلك، أعلن الرئيس روحاني بعد سنة من انسحاب أمريكا من الاتفاقية أن إيران سوف تتراجع عن الاتفاقية تدريجيا إذا لم تحرز القضية أي تقدم دبلوماسيا، ثم نفذت الحكومة هذا الإعلان في أربع مراحل فأعلنت إيران في اليوم السابع من يوليو عام ٢٠١٩ وباعتباره بداية المرحلة الثانية أن نسبة اليورانيوم قد جاوزت نسبة ٣,٦٧٪ المنصوصة في الاتفاقية إلى أن بلغت ٤,٥٪. وبعد ذلك بدأت تطور أجهزة الطرد المركزي في المرحلة الثالثة وتصبّ غاز هاكسافلوريد اليورانيومي إلى ١٠٤٤ في هذا النوع من الأجهزة في المرحلة الرابعة. بهذه الأعمال تحاول إيران أن تجعل أمريكا تعود إلى الاعتراف بالاتفاقية النووية الموقّعة معها في عام ٢٠١٥ وتعود إلى مسلك التفاوض، وأن تضغط على دول أوربا أيضا، غير أن أمريكا ما زالت تواصل العقوبات على إيران حتى يتجه النزاع بين الطرفين إلى حدّ أشدّ. وبالنسبة إلى التنمية الاقتصادية في إيران، فهناك ثلاثة حوادث ذات أهمية في عام ٢٠١٩ وهي تأسيس المجلس الأعلى للتنسيق الاقتصادي، وإعاقة مسير التقنين المطلوب من قبل فرقة الحركة المالية الخاصة، وانخفاض قيمة العملة الإيرانية الريال. ومن الخطوات المهمّة التي تتعلق بتطور المجتمع الإيراني طرح السياسات العامة لحكم التقنين في عام ٢٠١٩، التي تعترف بحقّ الزعيم في مراقبة أجهزة القانون والقضاء والإدارة، فيلاحظ في ذلك هدفه إلى التحكم في هذه الأجهزة السلطوية.

ويبدأ الجزء الرابع بالسعودية التي ظلت تواصل خطاها نحو الإصلاح منذ عام ٢٠١٨ بقيادة الملك سليمان وولي العهد محمّد، وظهرت فيها معالم جديدة في مجالات السياسة والاقتصاد والمجتمع والدبلوماسية. يرى الكتاب أن الوضع السياسي المستقرّ على وجه عام في المدّة الماضية هو امتداد طبيعي لمنطق السلطة من جهة ومن جهة أخرى فهو هدوء مؤقت بحكم الوضع الحالي. لقد ثبت نفوذ ولي العهد وسيبقى في موقع صالح له، وفي يده زمام المبادرة. وفي الوقت نفسه فإن حالة الأمن في البلاد ومحيطها شابها التوتر من جراء الخلاف مع إيران، ومقاطعة قطر، وتدهور أزمة اليمن؛ فأصبح أمن البلاد الشغل الشاغل للحكومة السعودية. ومن الناحية الاقتصادية، فإنّ الوضع في المملكة متأثر بتراجع الاقتصاد العالمي وتوتر الوضع الجيوسياسي والانتقال الداخلي بين النظامين القديم والجديد. قطعت السعودية شوطا اقتصاديا صعبا منذ عام ٢٠١٨، وتبدو المؤشرات غير متفائلة خاصة من حيث نسبة النمو للقيمة الإجمالية للإنتاج الوطني التي تكوّن ٠,٣٪ فقط. ورغم أن الحكومة لم تتوقف عن تحفيز الإصلاح الاقتصادي في إطار الرؤية ٢٠٣٠ وحصلت على نتائج معدودة في جهات تنويع تكوينات الصناعات وتحويلها، وتحرير السوق وفتحها تجاه الخارج، و تخصيص الرأسمال وإنهاض نشاط السوق، وتوطين التوظيف وتخفيف ضغطه، إلا أنه ما زال أمامها طريق بعيد. ومن الناحية الدبلوماسية، فإن الحكومة قامت بتعديل التكتيك الدبلوماسي وإبداء موقف الانكماش إزاء الشؤون الإقليمية والحوادث الساخنة ومواصلة التحالف بينها وبين أمريكا وإقامة إتحاد النفط الروسي السعودي وتطوير استراتيجية الجهة الشرقية والدبلوماسية المتعددة الأطراف. ومن المتوقع أن هذه السياسات الدبلوماسية الأكثر نضجا وعملا وتعددا وتوازنا سوف تصلح الوضع الأمني المحيط، وتوسّع ساحة حركة المملكة في المجتمع الدولي.

الكتاب: وضع الشرق الأوسط واستراتيجيته

المؤلف: جيبين هان، وواي لي

الناشر: ناشرالشؤون السياسية الجارية

الطبعة الأولى، يناير، 2021، باللغة الصينية

عدد الصفحات: 307

عدد الألفاظ: 330000

* (أكاديمية ومترجمة صينية)

إصدارات عالمية جديدة

اللغة الفرنسية (سعيد بوكرامي)

اليد المرئية للأسواق: تاريخ حرج للتسويق

المؤلف: تيبو لو تيكسيه **سنة النشر: 2022**

الناشر: دار لاديكوفيرت. باريس. فرنسا **عدد الصفحات: 656ص**

تعتمد ملامح مجتمعاتنا على البائعين والمشترين الذين لم يعودوا يلتقون كما كانوا يفعلون فيما مضى في الأسواق المفتوحة أو في ورش الحرفيين. فعلى امتداد قرن من الزمان، أفسحت البضائع بالقطعة الواحدة المجال أمام "منتجات" السلسلة المعبأة مسبقًا والمميزة بعلامات تجارية والتي تدفع من خلال "قنوات التوزيع" المادية والإعلامية؛ وبذلك أصبح العملاء "مستهلكين". من خلال تكييف يومي للإنتاج مع الاستهلاك، والاستهلاك مع الإنتاج، يظهر أن التسويق أبعد عن كونه وسيطًا: إنه يمارس تأثيرًا عميقًا، تغذيه العلوم الاجتماعية كلها، بما في ذلك المحيط الحميمي في السياسة والجامعة. إن المجتمع برمته "موجه نحو السوق"، تحت مباركة الدولة وعلى الرغم من العديد من التحفظات الفردية. مع التدبير الإداري، فإن التسويق جعل من الشركة المؤسسة الأساسية في عصرنا، والتي يعتمد عليها بقاؤنا بشكل متزايد. أفضل بكثير من علم الاقتصاد، فإنَّ العقلانية التسويقية توفر فهماً عميقاً للشركات والأسواق. ومع ذلك، فإن تاريخ هذه المعرفة العملية الأساسية للتشغيل السليم للرأسمالية لا يزال مجهولاً.

العملات وآلياتها

المؤلف: دومينيك بليون **سنة النشر: 2022**

الناشر: دار لاديكوفيرت. باريس. فرنسا **عدد الصفحات: 128 ص**

هذا الكتاب الهام موجه للطلاب والمهتمين، يتعامل بطريقة واضحة وصارمة مع الأسئلة الأساسية والشائكة التي يطرحها المال في اقتصادنا. ما هي العملة؟ لأي أسباب يسعى الفاعلون الاقتصاديون إلى الاحتفاظ بها؟ كيف ومن صنعها؟ ما دورها اليوم؟ ما الأشكال التي تتخذها في النظم المالية الحديثة؟ ماذا عن البيتكوين والعملات المحلية؟

كيف تتأسس العلاقات بين العملات في الاقتصاد العالمي؟ ما نطاق إنشاء اليورو وصعود اليوان؟

ما أهداف وأدوات السياسة النقدية؟ كيف تطورت السياسة النقدية في أعقاب عملية العولمة المالية والأزمة المالية؟

كيف تنظم السياسة النقدية في منطقة اليورو؟ كيف تطورت مهام البنك المركزي الأوروبي في أعقاب أزمة اليورو وأزمة المناخ؟

الكثير من الأسئلة المهمة والراهنة يجيب عليها الكتاب بمنهجية معرفية وبيداغوجية.

المعولمون: التاريخ الفكري للنيوليبرالية

المؤلف: كوين سلوبودان **تاريخ النشر: 2022**

الناشر: دار سوي.باريس. فرنسا **عدد الصفحات: 448ص**

يبدأ الكتاب بالتنقيب من النمسا في عشرينيات القرن الماضي، حيث بدأت الإمبراطوريات تتلاشى، وتهدد القومية والاشتراكية وتقرير المصير الديمقراطي واستقرار النظام الرأسمالي. ولمواجهة هذا الوضع، دعا المثقفون النمساويون إلى طريقة جديدة لتنظيم العالم. في الجامعات التي يُدرِّسون فيها ومع الحكومات التي يقدمون لها توجيهاتهم، لا يؤيد الاقتصاديون المشهورون مثل فريدريش هايك ولودفيغ فون ميزس أو شخصيات أخرى مؤثرة ولكن أقل شهرة مثل فيلهلم روبك ومايكل هيلبرين، سياسة عدم التدخل. بل على العكس من ذلك، فهم يرون في الدول والمؤسسات الدولية أدوات ممكنة لحماية الأسواق من آثار السيادة الوطنية والتغيرات السياسية واضطرابات المطالبة بالديمقراطية. يهتم كوين سلوبودان، المؤرخ الكندي والأستاذ المساعد في كلية ويليسلي، بالحركات الاجتماعية والعلاقات بين الشمال والجنوب والتاريخ الفكري للنيوليبرالية. يكتب بانتظام في الغارديان أو نيويورك تايمز. ويعتبر هذا الكتاب إضاءة كاشفة لما يحدث اليوم من اضطرابات اقتصادية وسياسية نتيجة أفكار ومخططات النيوالليبرالية لدفع العالم القديم نحو نظام عالمي جديد يتحكم فيه الاقتصاديون ويديره السياسيون.

اللغة الإنجليزية (محمد الشيخ)

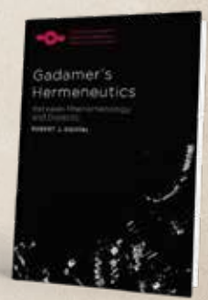

تأويليات جادامير (بين الفينومينولوجيا والجدل)

اسم المؤلف: روبرت دوستال **سنة النشر: 2021**

دار النشر: مطابع جامعة نورثويستر

عمّر الفيلسوف التأولي الألماني هانس جورج جادامير لأزيد من قرن من الزمن (1900-2002)؛ بحيث عاش سائر القرن العشرين وأطل على القرن الواحد والعشرين. وكان أن شغل الناس حيا وميتا. ورغم أنه لم يكتب الكثير، مقارنة مع أبناء جيله، فإن ما كتبه كان كافيا ليجعل منه أحد أهم فلاسفة عصرنا هذا. وهذا الكتاب يدير فكره برمته على مسألة اللغة؛ بناء على مقدمته الشهيرة التي تقول: إنما الكينونة تنبدي في اللسان. لكنه لا يغفل عن بيان أثر ما قبل اللسان في الإنسان؛ وهو ما يسميه "خبرة العالم الأصيل". وفضلاً عن هذا، يضع المؤلف فلسفة جادامير في مجرى ثلاثي: مجرى ميراث عصر الأنوار، مجرى ميراث شيخه هايدجر، مجرى قراءته للفلسفة الإغريقية: أفلاطون وأرسطو. وفي الجانب الأول يكشف عن التباس موقف جادامير من الأنوار؛ وفي الثاني يبرز دين هايدجر لأستاذه وبعض مظاهر تفرده عنه؛ وفي الثالث، يرفض قراءة أستاذه لأفلاطون ومعاداته للنزعة الإنسية ويبرز المؤلف خلاف جادامير مع شيخه في مساره السياسي؛ بحيث سعى جادامير، خلاف أستاذه، إلى نزعة مدنية إنسانية تدافع عن التربية الأخلاقية والحس المشترك والحكم والذوق.

: إليزابيث البوهيمية (1618-1680) (فيلسوفة في سياقها التاريخي)

تأليف جماعي تحت إشراف صبرينا إبرسماير وسارة هوتون **دار النشر: سبرينجر**

سنة النشر: 2021

ظُلمت النساء كثيرا في تاريخ الفلسفة الغربية؛ بحيث لم تفلت منهن من منساة التاريخ سوى القليلات. أما من مقصلة النسيان في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية، فلا تكاد واحدة منهن أفلتت. وفي ما يخص تاريخ الفلسفة الغربية؛ فإن هذه واحدة من الناجيات: واسمها إليزابيث، وهي تنحدر من إقليم بوهيميا وسط أوروبا، وإليه تنسب، وقد عاشت في القرن السابع عشر، وكانت أميرة بالاتينا. كما أنها كانت إحدى أشهر العقول النسوية في قرنها. ولربما لم يكتب لها بعض من الاشتهار، على الرغم من التهميش الذي عانت منه المرأة المفكرة والأديبة لدى جمهرة أهل القلم في ذلك الزمان، إلا لأن لها مراسلات مع الفيلسوف الفرنسي الشهير روني ديكارت. وحتى الساعة، لم تشر إليها إلا المصادر القليلة، ولم تخصها بكتاب منفرد. وقد ألف هذا الكتاب بين جماعة من أهل الاختصاص (مؤرخو فلسفة، مؤرخو فكر سياسي، فلاسفة، نسويون ...) لمناقشة عملها من مشارب متعددة بمناسبة ذكراها الأربعمائة. وسعى الباحثون في هذا المصنف إلى وضع فكرها في سياقه التاريخي: التربية التي تلقتها، صداقاتها وصلاتها، اهتمامها بالسياسة، انشغالها بالدين، نظرها في علم الفلك؛ فضلاً عن رؤاها السياسية وفلسفتها الأخلاقية واتباعها الفلسفة الديكارتية.

: الجذور الأنطلوجية للفينومينولوجيا (إعادة التفكير في تاريخ الفينومينولوجيا ومنعطفها الديني)

اسم المؤلف: حنة جاني **دار النشر: ليكسينجتون بوكس** **سنة النشر: 2022**

يمكن أن نقول: إن تاريخ الفلسفة في القرن العشرين هو تاريخ منعطفاتها؛ وذلك سواء تعلق الأمر بمنعطفات مباحث: من المنعطف اللساني إلى المنعطف النصي، ومن المنعطف التاريخي إلى المنعطف الثقافي، أو تعلق الأمر بمنعطفات أشخاص: منعطفات هايدجر وفيتجنشتاين وهابرماس ... أو بهما معا. وهذا كتاب في المنعطف الديني لفلسفة تبدو، عند أول النظر، وكأن لا صلة لها بالدين: الفلسفة الظاهرية. وتبرز مؤلفة الكتاب، بداية، أن النظر في الوجود المعيش، لدى هذه المدرسة، إنما صاحبه نظر في التجربة الدينية بوصفها خبرة معاشة. وذلك عند فلاسفة قلما تم التعرف عليهم في العالم العربي: الفيلسوفة الألمانية هيدويج كونراد-مارتينوس (1888-1966)، والفيلسوف البولندي رومان إنجاردن (1893-1970)، والفيلسوفة الألمانية اليهودية إديث شتاين (1891-1942) بدءا من تأثير هايدجر في بواكير تلامذة شيخه هوسرل. ثم تحلل المؤلفة منعطف هايدجر، وتقوم بالوقوف على نقد ريكور لهايدجر على مستوى النظر الخلقي.